مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

بلاغة النسق الترتيبي في البيان القرآني

(الانفطار والانشقاق أنموذجًا)

د. حمداللّه عبد الحكيم محمد حمداللّه

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد

كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

DOI: 10.21608/qarts.2023.252044.1816

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد (٣٣) العدد (٦٢) يناير ٢٠٢٤

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

بلاغة النسق الترتيبي في البيان القرآني

(الانفطار والانشقاق أنموذجًا)

الملخص

تتكاثر آليات جمال النظم وجلاله في البيان القرآني، فلا تقف عند حد النظم الداخلى المعجز بين كلماته وعباراته وآياته، متخطية حدود التناسب الداخلي إلى تناسب آخر يربط السور بعضها ببعض في عقد متناسق غاية التناسق؛ لتكشف عن إحكام يوازي دقة إحكام نظمه الداخلي، يتجلى هذا في بديع نسقه الترتيبي، ومن ثم جاءت هذه الدراسة لتقف على جوانب هذا النظم الترتيبي المتوازن الذي يأخذ بعضه برقاب بعض، فيقف على تداخل العلاقات بين سورتين تتصلان بالتحول الأخروي؛ هما الانفطار والانشقاق؛ ليبين من خلالهما دقة اختيار اللفظ المعبر عن أهوال القيامة المتصاعدة، وكذلك الكشف عن علاقة السورتين بخمس سور تحيط بهما وترتبط معهما ظهورا وخفاء للكشف عن أحوال اليوم الآخر، وما هو معلوم أن الترتيبين سواء ترتيب النزول أو ترتيب المصحف؛ يتضح من خلالهما أن الانفطار يسبق الانشقاق، هذه العلاقة حملت الدراسة على النظر في تقارب العنوان معجما ومصحفا ونزولا؛ لتميط اللثام عن دواعي تصاعد الأهوال وأسبابها، مع بيان تأثير ذلك على النظم الداخلى وسياقه، وقد تبين من خلال الدراسة تقارب السورتين في النظم الداخلي عن طريق تكرار تسع قضايا مشتركة بين السورتين تعرض لها البحث تحت عنوان التكرار بين السورتين، كما عني البحث بالنظر في أثر سريان العنوان داخل مضمون النص، ثم عرض لظاهرة تحول النظم من خلال أسلوب الالتفات الذي تنسجم مظاهره مع التحولات الخارجية للأحداث، وكذلك تطرق البحث لعدد من القيم التأثيرية الإقناعية للأساليب المعنوية واللفظية في حجاج منكري البعث، وأخيرا ختمت الدراسة بالنظر في الفواصل التي أكدت هذا التقارب بين السورتين في النظم، فقد تساوت كلمات فواصلهما في الاسمية والفعلية، وفي الفاصلة المفردة، وتقاربت فيهما أصوات الروي.

الكلمات المفتاحية: النسق، الترتيب، البيان القرآني، البلاغة، الانفطار، الانشقاق.

مقدمة

النص القرآني بليغ غاية البلاغة في اختيار مفرداته وتراكيبه ونظمه وأسلوبه، وكذلك في ترتيب نزوله وترتيبه المصحفي، وقد تخيرت الدراسة هاتين السورتين لبيان حسن نسق ترتيبهما المصحفي في الوقت الذي يدعو فيه البعض إلى الاتجاه نحو ترتيب سور القرآن حسب نزوله كآلية جديدة تناسب روح العصر، وهذا ادعاء ليس فيه تجديد بل هي فكرة غير مقبولة من عدة جهات؛ منها: أن ترتيب القرآن توقيفي بالدليل المنطقي والبلاغي، وهو ما تبين جانبا منه هذه الدراسة لهاتين السورتين الكريمتين.

وإذا يساعد ترتيب النزول في فهم بعض العلاقات من خلال الترتيب التاريخي للأحداث إلا أنه في الوقت ذاته لا يصلح منفردا للتعبير عن بلاغة القرآن أو انتهاجه منهجا للترتيب لاختلاف الروايات التي تقدم بعض السور على بعض، وإن تبني مثل هذا الترتيب سوف يصنع اختلافا بين المصاحف نظرا للاختلاف في ترتيب نزول بعض السور تقدما أو تأخرا، ولكن الثابت اتفاق المسلمين حول الترتيب المصحفي الحالي، ومن ثم تهتم الدراسة ببيان التقارب بين سورتين هما الانفطار والانشقاق لتكشف عن دقة هذا الترتيب وحسن نسقه وتؤكد على سلامته من العيوب التي تلحق الاعتماد على ترتيب النزول منفردا.

كما تبين هذه الدراسة التي وضعت لإدراك صور التحول الأخروي من خلال الدرس البلاغي الذي لا يقف عند حدود مضمون النص فحسب بل يتعداه لإدراك التقابل بين نصين في موضوع واحد للوقوف على صور التقارب؛ فقد ذكرت بعض الأساليب في سورة الانفطار ثم أعيد ذكرها في سورة الانشقاق كسبيل مؤكد على أهميتها وذلك نظرا لوحدة ظروف السياق المقامي، وهو الأمر الذي يدعو إلى التأمل والنظر والبحث عن أسباب هذا الترابط.

وقد سبقت هذه الدراسة مجموعة من الدراسات البلاغية التي تعرضت لبلاغة النص القرآني دراسة جمالية وفق تصنيف السكاكي للبلاغة، فقصُرت عن الهدف أحيانا وأصابت في أحايين أخرى، ومن هذه الدراسات:

- من أسرار النظم القرآني في سورة الانفطار دراسة بلاغية، عيسى بن صلاح الرجبي، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، مجلد ٤٨، ٢٠١٧م، ص٨٥-١٣٣.
- التناسب البلاغي في سورة الانفطار، سلمان محمد حسن القرني، مجلة تبوك للعلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد ٣٠، عام ٢٠١٨م، ص٥٣-٧٦.
- من أسرار النظم القرآني في سورة الانشقاق دراسة بلاغية، عيسى بن صلاح الرجبي، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، عدد١٧٢، ص٥٥٧-٦٥٠.
- الأساليب النحوية والبلاغية في سورة الانفطار، م.م براءة هاشم علوان كلية التربية للبنات، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الانبار، عدد٥٩، ص١٩٧-٢٢١، عام ٢٠١٩م
- حركة المعنى في سورة الانفطار"دراسة بلاغية، فاطمة عبد المجيد هنداوي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، يونيو ٢٠٢٠م، ٩٤٧-٩٩٧.

وهذه الدرسات قد أضافت إضافات جليلة إلى الدرس البلاغي في إعجاز القرآن على مستوى اللفظ والتركيب والأسلوب، لكن تبين قصورها عن إدراك صورة أخرى من الإعجاز التكاملي بين السورتين نظرا لانفراد كل دراسة منها بسورة واحدة دون الأخرى، وقد حملت هذه الدراسة على عاتقها تبني سياسة المقارنة والمقاربة بين النصين لتقديم دراسة تكاملية تبرز قضاياهما المشتركة.

وقد تألفت الدراسة من سبعة مطالب درست من خلالها تقارب نسق السورتين، وهي على النحو الآتي: فقد درست في المطلب الأول: دقة تخير اللفظ في التعبير عن أهوال القيامة، وفي المطلب الثاني: بلاغة الترتيب المكاني للسورتين بين النزول والترتيب المصحفي، وفي المطلب الثالث: التناسق بين عنوان السورتين ومضمونهما، وفي المطلب الرابع: تقارب نسق ظاهرة التكرار بين السورتين، وفي المطلب الخامس: ظاهرة الالتفات وتحولات النسق بين السورتين، وفي المطلب السادس: القيم التأثيرية الإقناعية للأساليب المعنوية واللفظية، وفي المطلب السابع: تقارب نسق الفواصل بين السورتين.

المطلب الأول: دقة تخير اللفظ في التعبير عن أهوال القيامة.

تركز الدراسة على تلك العلاقات الخفية والجلية بين السورتين، هذه العلاقات التي صنعها العنوان حيث الانفطار والانشقاق لظاهرة واحدة، وتشير لفظتا العنوان ببعدهما الدلالي إلى ترتيب واضح على مستوى المفردات لغويا وعلى مستوى الأحداث؛ لذا كان اختيار المفردتين يمثل ركنا مهما في قراءة مضامين السورتين، كما يوضح التقارب في البناء التركيبي ومن ثَم الحجاج الإقناعي داخل النصين، لأجل هذا كان الوقوف على لفظتي: (الفطر والشق) من خلال العنوان ممثلا في الانفطار والانشقاق بشكل عام والذي يقِّيده افتتاح السورة بانفطار السماء وانشقاقها.

١- الاختيار المعجمي للفظ (الانفطار)

تشير المعاجم اللغوية إلى أن "الفاء والطاء والراء أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه، من ذلك الفطر من الصوم، يقال: أفطر إفطارا، وقوم فطر؛ أي: مفطرون، ومنه الفطر، بفتح الفاء، وهو مصدر فطرت الشاة فطرا، إذا حلبتها،

ويقولون: الفطر يكون الحلب بإصبعين، والفطرة: الخلقة"[١]، والفطر بالفتح: "الشق وقيده بعضهم بأنه الشق الأول، والجمع: فطور، وهي الشقوق، وفطر ناب البعير يفطر بالضم فطرا بالفتح وفطورا كقعود: شق اللحم وطلع فهو بعير فاطر، وفطر الأمر: ابتدأه وأنشأه"[٢]، و"الفطر إظهار الحادث بإخراجه من العدم إلى الوجود كأنه شق عنه فظهر"[٣].

وتدور معاني الفطر حول: الظهور، والفتح، وإبراز الشيء، والاستخلاص، والخلق، والشق، والطلوع، والابتداء، والإنشاء، وهي معان يفهم منها بداية كل أمر.

وفي القرآن جاء الفطر بمعنى الخلق مرة بصيغة الفعل؛ في قوله تعالى: (لِلَّذِي فَطَرَ) (الأنعام:٧٩)، (الَّذِي فَطَرَنِي) (هود:٥١، يس:٢٢، الزخرف:٢٧)، (الَّذِي فَطَرَكُمْ) (الإسراء:٥١)، (الَّذِي فَطَرَهُنَّ) (الأنبياء:٥٦)، (وَالَّذِي فَطَرَنَا) (طه:٧٢)، وهنا ملمحان: الأول: مجيء الفطر في جملة الصلة بعد (الذي) مع كل فعل لبيان اتصافه تعالى بالقادر على هذا الفعل دون سواه، والثاني: تكرار الفطر مع اختلاف الضمائر التي تنوعت لتشمل كل أصناف المتكلمين والمخاطبين وحتى الغائبين، وهذا الخلق يولد على فطرة سوية لا اعوجاج فيها؛ قال تعالى: (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (الروم:٣٠)، كما ذكر اللفظ اسما على صيغة (فاعل) ست مرات في قوله: (فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الأنعام:١٤)، (يوسف:١٠١)، (إبراهيم:١٠)، (فاطر:١)، (الزمر:٤٦)، (الشورى:١١).

---

[١] مقاييس اللغة (مادة: فطر).

[٢] تاج العروس: (مادة: فطر).

[٣] الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٤٠٧.

ونفى البيان القرآني ادعاء نسبة الولد إليه –تعالى– زورا وبهتانا مبينا كذبه في موضعين منه، ومعللا ذلك بأن أكبر مظاهر الكون تكاد تسقط هولا لهذا الإفك المبين؛ قال تعالى: (تكاد السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ منه) (مريم:٩٠)، (الشورى:٥)، وهذا الانفطار لا يكون مصاحبا لأحوال السماء إلا يوم الانقلاب الكوني العظيم؛ قال تعالى: (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) (المزمل: ١٧-١٨)، وعبر عن هذا الهول الأعظم الذي هو أول مراحل هذا التحول الأخروي؛ فقال: (إذا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ) (الانفطار:١).

والفطر كما يكون به البدء والإنشاء؛ فهو أيضا أول مراحل الدمار والخراب؛ وعند الراغب: "الفطر الشق طولا، يقال فطر فلان كذا فطرا وأفطر هو فطورا وانفطر انفطارا؛ قال: (هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) (الملك: ٣)؛ أي: اختلال ووهى فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد وقد يكون على سبيل الصلاح"[١]، فمناط الفعل على الجمع بين نقيضين وهو ما يتولد من أصل مادته، فيحمل اللفظ معنى الإنشاء والخلق والإيجاد والإبداع، كما يحمل معنى النقض والخراب والدمار، ولا شك في أن القادر على إحداث الشيء ونقيضه على تلك الصورة من الإحكام والتقدير إله واحد.

٢- الاختيار المعجمي للفظ (الانشقاق)

تقول المعاجم: "الشين والقاف أصل واحد صحيح يدل على انصداع في الشيء، ثم يحمل عليه ويشتق منه على معنى الاستعارة، تقول شققت الشيء أشقه شقا، إذا صدعته، وبيده شقوق، وبالدابة شقاق، والأصل واحد، والشقة: شظية تشظى من لوح أو خشبة، ومن الباب: الشقاق، وهو الخلاف، وذلك إذا انصدعت الجماعة وتفرقت[٢]،

---

[١] **المفردات: (مادة: فطر).**

[٢] **مقاييس اللغة: (مادة: شق).**

ويقال أيضا: الشق الخرم الواقع في الشيء؛ يقال شققته نصفين"[١]، يقول الماوردي في تفسيره لـ(شق الأنفس): "وفي شق الأنفس وجهان: أحدهما: جهد النفس، مأخوذ من المشقة، الثاني: أن الشق النصف فكأنه يذهب بنصف النفس"[٢]، فللشق جانبان: جانب معنوي، وآخر لفظي والسياق هو الكاشف عن المراد.

وتدور معاني الشق: حول التصدع والخلاف والتفرق والخرم والصعوبة وكلها معان تدل على خراب واضح، فلا تحمل اللفظة جمعا بين حالين متناقضين صلاحا وفسادا كما بدا في فعل (فطر) من قبل وإنما تأتي أكثر معانيها لتنص على الفساد، والشق مذكور في التنزيل الحكيم بطرق شتى مع الظواهر الكونية؛ كالسماء والأرض والقمر؛ فأما قوله عن السماء: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ) (الفرقان:٢٥)، (وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) (الحاقة:١٦)، (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) (الرحمن:٣٧)، (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) (الانشقاق:١)، وأما قوله عن الأرض: (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا) (ق:٤٤)، وقوله عن القمر:(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) (القمر:١).

وباستدعاء معاني (الشق) في النص القرآني يتبين ما للشق من دلالتين: إحداهما مادية وهي المذكورة في اختصاص السماء والأرض والقمر وهي أحوال تعتريهم في أزمنة مختلفة وأوقات متباينة[٣]، وجانب معنوي يعبر عنه فعل (شاقَّ) المستعمل في

[١] المفردات: (مادة: شق).

[٢] النكت والعيون، أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٣/١٨٠.

[٣] وَتَنشَقُّ الأَرْضُ: مريم/٩٠، تَشَقَّقُ الأَرْضُ: ق/٤٤، شَقَقْنَا الأَرْضَ: عبس/٢٦، تَشَقَّقُ السَّمَاءُ: الفرقان/٢٥، انشَقَّتِ السَّمَاءُ: الرحمن/٣٧، وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ (الحاقة/١٦).

العصيان، فقد استعمل فعل الشق معنويا في القرآن الكريم في النهي عن شقاق الله تعالى والرسول وهو بمعنى الخلاف[1].

والشق المراد هنا هو اللفظي الوارد مع السماء لا المعنوي، وإن كان في الحالين يعني تفريق شيء من شيء، وجل التفاسير لم تفرق بين معنى الانفطار والانشقاق تفريقا دقيقا؛ فالطاهر بن عاشور يقول: "والظاهر هذا الانفطار هو المعبر عنه بالانشقاق أيضا في سورة الانشقاق وهو حدث يكون قبل يوم البعث وأنه من أشراط الساعة"[2]، وهو ما ذهب إليه سيد طنطاوي في قوله: "لم تفرق التفاسير بين الفطر والشق تفسيرا دقيقا"[3]، إلا أنه لم يقف عند دقة اختيار اللفظ هنا أو هناك، ولم يقدم بيانا للفرق بين المصطلحين.

ويعبر الشق عن ظهور فساد الفطر فهو تصدع أكبر في مقابل تصدع الفطر البادئ للتحول الأخروي، واستعمال اللفظتين في اللغة والقرآن الكريم يبين تعاقب الفعلين أحدهما سابق وهو الفطر، والثاني لاحق وهو الشق، ولا ترادف أو تطابق بين المصطلحين في البيان القرآني، حيث إن "وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا بُدّل مكانه غيره جاء منه تبدّل

---

[1] شَاقُّوا اللَّهَ (الأنفال/١٣)، يُشَاقِّ اللَّهَ (الحشر/٤)، يُشَاقِقِ اللَّهَ (الأنفال/١٣)، شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (الأنفال/١٣) (الحشر/٤)، يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (الأنفال/١٣)، يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ (النساء/١١٥).

[2] التحرير والتنوير ٣٠/١٧١.

[3] التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٥/٣٠٨.

المعنى الذي يكون منه فساد الكلام"[١]، فكل لفظ متمكن في موضعه غاية التمكن يزيد وينقص عن غيره لكن لا يتطابق لفظ مع آخر.

٣- ملاءمة صيغة المطاوعة لسياق الأهوال

جاءت صيغة المفردتين على وزن واحد هو (انفعل)؛ فقال في الأولى: (انفطرت)، وفي الثانية: (انشقت) وهما من أفعال المطاوعة التي تبين إذعان المفعول لفاعله؛ يقول ابن الحاجب عن معنى المطاوعة: "هي حصول الأثر عن تعلق الفعل المتعدي بمفعوله؛ نحو: كسرت الإناء فانكسر"[٢]، فاختيار بنية الفعل له بعد بلاغي في علاقة التأثير والتأثر التي يفرضه سياق الانقلاب الكوني، فصيغة المطاوعة بين فطر وانفطر "هي أن يدل أحد الفعلين على تأثير، ويدل الآخر على قبول فاعله لذلك التأثير"[٣]، حيث أُمرت السماء بالفطر فانفطرت، كما أُمرت بالانشقاق فانشقت، وهو ما يؤكده سماعها الأمر واستجابتها له في سورة الانشقاق؛ قال تعالى: (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)(٢)، وناسب ذكر هذه الصيغة معهما مقام التحول العظيم؛ لأن المقام مقام امتثال لأحداث عظام، والمطاوعة أساس الطاعة ووعاؤها الأمثل، كما لحقت بهما أفعال أخرى في الانفطار؛ فقال: (انتثرت، فجرت، بعثرت)،وأخرى في الانشقاق، فقال: (مدت، تخلت)، وهي أفعال مبنية على ما لم يسم فاعله؛ فوراء هذه الأحداث إله قادر

---

[١] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للخطابي، والرماني، وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨م، ص٢٩.

[٢] الإيضاح في شرح المفصل، لابن الحاجب، تحقيق: موسى بناي العليلي، وزارة الأوقاف، العراق، ط١٩٨٣م، ١٢٠/٢.

[٣] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص ٦٧٦.

كما أنه لم يذكر الفاعل صراحة للتركيز على الفعل؛ لأن مراد الفاعل كائن في ظهور فعل السماء وكأنه من تلقاء نفسها طاعة للآمر، وهذا مبعث الهول.

المطلب الثاني: بلاغة الترتيب المكاني بين النزول والترتيب المصحفي

يسير البيان القرآني على نسق واضح من التكامل والتناسب بين السور بعضها ببعض، و"القاعدة التي استقر بها القرآن أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه، وقد استقر معنى ذلك في غالب سور القرآن، طويلها وقصيرها"[1]، والسورتان تتعرضان لأهوال القيامة، ويتصل عنوانهما اتصالا مباشرا ببدايتها وبخاصة أحوال السماء على سبيل التغريض الذي يعني اتصال العنوان بالجملة الأولى في النص، فتبدأ السورة الأولى الانفطار؛ بقوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)، وتبدأ السورة الثانية الانشقاق؛ بقوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)، ولهذا السبب كان اختيار السورتين كنسق ترتيبي خاص بموضوع واحد يخص أهوالا واحدة يحمل العنوان دلالة الشق عامة، لكن أحدهما شق خفي أو ما يمكن أن نطلق عليه أول مراحل الشق، وشق جلي فيه تصدع وانهيار واضح؛ قال تعالى: (وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) (الحاقة: ١٦)، فما يحدثه الانشقاق فيه ضعف وتدمير لهذا البنيان العظيم، ويظهر ذلك من ترتيب الأحداث، فأحداث الانفطار تسبق أحداث الانشقاق.

وقد تبين من ترتيب السورتين تقدُّم الانفطار على الانشقاق في ترتيب النزول (وهو ما يمكن أن نطلق عليه الترتيب الأفقي)، وأيضا يتقدم الانفطار على الانشقاق في ترتيب المصحف (وهو ما يمكن أن نطلق عليه الترتيب الرأسي).

---

١ تناسق الدرر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٦م، ص ٦٨.

وذكر الزركشي ترتيب نزول هذه السور تحت عنوان: ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه، وذكر "النازعات ثم إذا السماء انفطرت ثم إذا السماء انشقت ثم الروم"[١]، فقد سبقت الانفطار الانشقاق في ترتيب النزول، وفي ترتيب المصحف تأتي سورة الانفطار الثانية والثمانين في الترتيب، تعقبها الانشقاق وهي الرابعة والثمانين، فتسبق الانفطار الانشقاق أيضا، وعلة ذلك أنها لما كانت سابقة في ترتيب النزول لسبق أهوالها سبقت أيضا في ترتيب المصحف لذات السبب.

وللمعنى اللغوي دور في تقديم الانفطار على الانشقاق في الحالين؛ لأن الانفطار يسبق الانشقاق لغة كما يسبقه هولا حتى تكتمل بنية الترتيب يكشف مضمون السورتين هذا الملمح المهم للترتيب الخاص بهما، إذ يعد الفطر بداية الشق، فيما يعبر الشق عن اتساع فروج السماء حتى تظهر للعيان استعدادا لأهوال أخرى قادمة.

وللمقام المكاني دور في بيان تقارب نسق الموضوع بين السور الخمس؛ وهي: التكوير والانفطار والمطففين والانشقاق والبروج، فكثيرا ما تقتصر دراسة المناسبة والتناسق على مضمون سورة واحدة أو البحث في علاقة سورة ما بالسابقة عليها واللاحقة لها؛ أى على دراسة تناسق ثلاث سور متتالية وهو الأكثر بحثا وتدبرا في دراسة الترتيب، ولكن هذه الدراسة التي تدرس سورتين منفصلتين تتوسطهما سورة؛ يدعونا إلى التأمل في تناسب خمس سور متتاليات في الترتيب المصحفي لمعرفة علاقاتها وأسباب ترتيبها على هذا النسق؛ ولبيان علاقة السورتين محل الدراسة بهذه الدائرة المتشابكة من السور القرآنية.

فقد تلتقي السور الثلاث: الانفطار والانشقاق والتكوير في "أمارات البعث والتذكير بيوم القيامة، وما فيه من أهوال وتبدلات، وبيان مصير الإنسان: إما إلى

---

[١] البرهان للزركشي ١/ ١٩٣.

الجنة وإما إلى النار، لكن كل سورة تتميز بوصف مظاهر معينة للقيامة، وقد تلتقي السور الثلاث في بيان بعض مصير الظواهر الكونية، وكل سورة من هذه السور تلوم مخالفة الإنسان لربه، مع إنعامه عليه، وتحمله على الاستقامة"[1]، فالترابط واضح بين السور الثلاث على مستوى مضمون السور من خلال الحديث عن أهوال القيامة ومآل الإنسان في الآخرة وفيها حجاج للإنسان المخالف لمنهج ربه وتثبيت للمؤمن.

وعلى مستنوى الافتتاح تلتقي السور الثلاث في طريقة الافتتاح بأداة الشرط (إذا) مع تكرير الشرط بطريقة ملفتة؛ للبحث وراء اختيار مفردات الكون التي ستلحقها الأهوال وعلاقة كل جزء بالآخر؛ يقول البقاعي: "وتكرير (إذا) للتنبيه على عظيم القدرة"[2]؛ فالشمس والنجوم والجبال والعشار والوحوش والبحار والنفوس والموءودة والصحف والسماء والجحيم والجنة في سورة التكوير، والسماء والكواكب والبحار والقبور في سورة الانفطار، ثم السماء والأرض في سورة الانشقاق.

وورد أكثر ألفاظ الظواهر الكونية عددا في سورة التكوير، ثم يقل العدد في سورة الانفطار ليأتي مجملا في سورة الانشقاق، حيث إن إجمال كل مظاهر الكون المذكورة على جهة التفصيل في التكوير يقع تحت ظاهرتين عظيمتين هما السماء والأرض، وقد تكرر لفظ السماء في السور الثلاث مع ذكر بعض مكوناتها وإخفاء مفردة الأرض في سورتي التكوير والانفطار لتظهر في الانشقاق.

علاقة الانفطار بالتكوير

سياق التكوير كسياق الانفطار في البدء بالشرط وفي اشتمالها على أهوال القيامة والانقلاب الكوني، كما بدا جواب الشرط واضحا غير مبهم في السورتين وهو

---

[1] التفسير الوسيط، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ.

[2] نظم الدرر للبقاعي، ٣٣٧/٢١.

العلم؛ فقال: (علمت نفس) في موضع جواب الشرط في السورتين، ولما كان لكل سورة خصوصية خص التكوير؛ بقوله: (ما أحضرت) ثم خص الانفطار؛ بقوله: (ما قدمت وأخرت)، "لأن ما في هذه السورة –التكوير– متصل بقوله: (وإذا الصحف نشرت)(١٠)؛ فقرأها أربابها فعلموا ما أحضرت، وفي الانفطار متصل بقوله: (وإذا القبور بعثرت) (٤) والقبور كانت في الدنيا فيذكرون ما قدموا في الدنيا وما أخروا في العقبى؛ فكل خاتمة لائقة بمكانها"[1]، وقيل: "(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (التكوير: ١٤)، وكأنه قد قيل: إذا حضرت هذه الأهوال مدركة للعيان حضرت أعمالكم بالتذكير لها ومطالعتها مكتوبة محصورة في الصحف التى لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا محصاة فيها"[2].

وكما كان لفاتحتها تناسب مع الانفطار، فلخاتمتها علاقة واضحة بها، فإنه تعالى "لما ختمت التكوير بأنه سبحانه لا يخرج عن مشيئته وأنه موجد الخلق ومدبرهم، وكان من الناس من يعتقد أن هذا العالم هكذا بهذا الوصف لا آخر له... افتتح الله سبحانه هذه بما يكون مقدمة لمقصود التي قبلها من أنه لا بد من نقضه لهذا العالم وإخرابه ليحاسب الناس فيجزي كلاً منهم من المحسن والمسيء بما عمل"[3]، ولذلك قال ابن الزبير الغرناطي: "هذه السورة كأنها من تمام سورة التكوير لاتحاد القصد فاتصالها بها واضح"[4]، حيث صدر في التكوير هول ظاهرة الشمس وفي الانفطار هول السماء،

١ أسرار التكرار في القرآن, محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق : عبد القادر احمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ط٢، ١٣٩٦هـ، ص ٢١٤

٢ ملاك التأويل، لابن الزبير الغرناطي، تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت،٢/٥٠٤.

٣ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر أبو بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ٢٩٨/٢١.

٤ البرهان فى تناسب سور القرآن، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٠ م، ص ٣٥٨.

وهما محط أنظار المتلقي؛ لأنهما آيتان كبيرتان عظيمتان في خلقهما وفي إثبات قدرة الخالق؛ لذا جعل فناءهما بأمره حادثا، فاستطاعته الفناء كاستطاعته الخلق.

ومن علاقة التكوير بالانفطار تكرار أمر آخر يخص ما يعتري (البحار) من أحوال وأوصاف؛ إذ جاء في التكوير قوله: (وإذا البحار سجرت) (٦)، وفي الانفطار (وإذا البحار فجرت)(٣)؛ "لأن معنى سجرت عند أكثر المفسرين أوقدت فصارت نارا من قولهم: سجرت التنور، وقيل: هي بحار جهنم تملأ حميما فيعاقب بها أهل النار؛ فخصت هذه السورة بسجرت موافقة لقوله: سعرت؛ ليقع الوعيد بتسعير النار وتسجير البحار"[1]، ولوقوع التكوير سابقة في الترتيب فسجر البحار سابق على تفجيرها؛ فإنها تسجّر أولا حتى إذا بلغت درجة من الغليان فجّرت، وغليانها بما تحتها من براكين وزلازل.

ولا يخلو الأمر من مناسبة كل لفظ لمقاصد السورة التي ورد فيها، فقد "خصت سورة الانفطار بلفظ الانفجار ليناسب مطلع السورة وافتتاحها، ألا ترى في انفجار العذب إلى المالح والمالح إلى العذب وبعضها إلى بعض انفطار ناسب انشقاق السماء وانفطارها، فانفطار السماء، وانفجار البحار، وبعثرة القبور، وانتثار النجوم، كل ذلك متناسب أوضح تناسب وأبينه"[2]، وحيث ناسب الانفجار الانفطار على مستوى تقلب الظواهر الكونية.

الفصل بالمطففين بين الانفطار والانشقاق

---

١ أسرار التكرار للكرماني، ص٢١٥.

٢ ملاك التأويل ٢/٥٠٣.

تكشف سورة المطففين عن قضية أزلية تُبنى عليها حياة الناس ومعاشهم تتجلى في نقص الكيل والميزان، لذا فصل بها البيان القرآني بين الانفطار والانشقاق، وكان هذا الداء موجودا في دار الهجرة قبل قدوم النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان أولى بالقضاء عليه وبيان سوء عاقبته يوم القيامة وكان لوقوعه بين تهديدين موعظة بليغة لقلب السامع، فعن سبب نزولها ينقل الواحدي:"عن ابن عباس، قال: لما قدم النبي- صلى الله عليه وسلم- المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً؛ فأنزل الله تعالى: (وَيلٌ لِّلمُطَفِّفِينَ)؛ فأحسنوا الكيل بعد ذلك"[١].

وهنا سؤال مهم يلقي بظلاله، لم فُصل بين الانفطار والانشقاق بالمطففين والسورتان متكاملتان في الحديث عن أهوال القيامة؟

وقع الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التي هي نظائر؛ كما يقول السيوطي: "وذلك أن السور الأربع لما كانت في صفة حال يوم القيامة، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه فغالب ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار، وقع في صدر يوم القيامة، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل، ومقاساة العرق والأهوال، فذكره في هذه السورة بقوله: (يومَ يقومُ النّاسُ لِربِ العالمين) (المطففين:٦).. ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى، فتنشر الكتب... ثم بعد ذلك يقع الحساب هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث، فناسب تأخير سورة الانشقاق التي فيها إتيان الكتب والحساب، عن السورة التي قبلها، والتي فيها ذكر الموقف عن التي فيها مبادئ يوم القيامة"[٢].

---

[١] أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ص٤٧٤، سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، رقم ٢٢٢٣، ٢/ ٧٤٨.

[٢] أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق د. عبد القادر عطا، دار الفضيلة، القاهرة، ص١٥٥.

وهو ما ذهب إليه د. حسن طبل في محاولة لإدراك التناسب بين السور الثلاث، فذكر أنه تعالى بدأ بالانفطار ثم ثنى بالانشقاق وتتلاحم السورتان في أن الانشقاق تعد تطورا وترتيبا منطقيا لتحقق الجزاء الذي ذكرت مقدماته في الانفطار في قوله: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ) (١٠- ١١)، وفي الانشقاق؛ قال تعالى: (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) (٦).

لذا ركزت الانفطار على الانقلاب الكوني فيما ركزت المطففين على البعث والحشر، وجاءت سورة الانشقاق لتصوير الحساب، وفيهم (الكتابة ثم حفظ المكتوب وأخيرا تسليم الكتاب) وهذا من بلاغة الترتيب المصحفي"[1]، وفي المطففين بسط عن حال (الفجار) و(الأبرار) وقد كان موجزا من قبل في الانفطار.

ولما كان أمر الميزان يحتاج في الناس إلى موعظة بليغة لترسيخها في النفس؛ لأنه مناط توازن الكون ومصالح العباد، وقد أرسل في هذا من قبل شعيب _عليه السلام_ رسولا للوفاء بالقسطاس المستقيم، بدأ سورة التطفيف بالدعاء على من قام بهذا الفعل وتوعده بالويل، ومن ثم توسطت السورة بين أهوال القيامة للفت النظر إلى قيمة القسط في الميزان وللتعريض بكل من أعرض عن الذكر الواضح في موقف الحساب.

وجاءت خاتمة الانفطار في وصف حال الفجار تقدمة لمفتتح المطففين؛ لأنه "ذكر ما أعد لأهلها وجمع إليهم كل من اتصف بوصفهم فحمله وصفه على نوع من المعاصي، كل ذلك تنبيهاً للأشقياء الغافلين على ما هم فيه من السموم الممرضة

١ انظر/ في رحاب القرآن تاملات بلاغية، د.حسن طبل، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٦م، ١/١٥٨، ١٥٩.

المهلكة، ونبه على الشفاء لمن أراده؛ فقال: (ويل)؛ أي هلاك ثابت عظيم في كل حال من أحوال الدنيا والآخرة."[١]

وعلاقة المطففين بالانشقاق؛ تظهر في حديث سورة المطففين عن نقص الميزان وبيان عقوبة العاصين والمخالفين لهذا الأمر، والخطاب في هذا الموضع اتخذ طريقة المباشرة والتكثيف، ثم انتقل إلى بيان ما في اليوم العظيم من جزاء، وتفصيل كتاب الفجار والأبرار في هذا اليوم، ثم بدأ سورة الانشقاق بالشرط المؤكد لهذه الأحداث.

وبدا ختام المطففيين كأنه جواب شرط استفهامي إنكاري مقدم على أسلوب الشرط؛ فقوله: (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (المطففين:٣٦)، ليأتي بعدها مفتتح السورة: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)(١)؛ فيكون الجواب: لم يثوب الكفار عند انشقاق السماء بشيء من الدنيا بل يبدأ الحساب على ما تم النهي عنه والتذكير به مرارا.

علاقة الانشقاق بالبروج

تأتي السورة في سياق الأهوال عارضة لأهوال السماء وحالها يوم البعث وما سيحل على الكون من الفساد العظيم؛ فذكرها مفصلة كما ظهر في الانفطار أو مجملة كما حدث في الانشقاق وكانت السماء أكبر خلقا؛ لذا أقسم بها تعظيما لها وزيادة في بيان ما يتصل من الأهوال بهذا البناء العظيم في سورة –البروج– لبيان قدرته على نصر من خذله الناس والقرابة؛ يقول أبوحيان إنه "لما ذكر أنه تعالى أعلم بما يجمعون للرسول –صلى الله عليه وسلم– وللمؤمنين من المكر، والخداع، وإذاية من أسلم بأنواع من الأذى... ذكر أن هذه الشنشنة كانت فيمن تقدم من الأمم يعذبون بالنار، وأن أولئك الذين أعرضوا على النار كان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم أن يرجعوا

---

١ نظم الدرر للبقاعي ٢١/٣١١.

عن دينهم أو يحرموا، وأن أولئك الذين عذبوا عباد الله ملعونون، فكذلك الذين عذبوا المؤمنين من كفار قريش ملعونون، فهذه السورة عظة لقريش وتثبيت لمن يعذب"[1]، وفي السور تكثيف لأهوال الحساب وبيان جرم العصاة وتوضيح ضعف كيدهم وعنادهم أمام هذه الأهوال العظام، وحديثه بالماضي عن أحداث ستقع في المستقبل دليل على تحقق وقوعها في قوله: (قتل أصحاب الأخدود).

وكالسمة البارزة في السور السابقة في تكاملها وتناصاتها يظهر فيها تكرار بعض التراكيب مع خصوصية كل تركيب في موضعه عن الآخر لخصوصية في السورة ومناسبة لمقتضى حالها، فقد ورد هنا تكرار بين السورتين في قوله تعالى: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) (الانشقاق: ٢٢- ٢٣)، وفي البروج: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ۝ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ) (البروج: ١٩- ٢٠)، فلم اختصت الانشقاق بالفعل المضارع، واختصت البروج بالمصدر، وسبب الاختلاف "أن آية الانشقاق تقدمها وعيد أخروي كله لم يقع بعد وهم مكذبون بجميعه؛ فجيء هنا باللفظ المقول على الاستقبال –وإن كان يصلح للحال– ليطابق الإخبار؛ لأنه عما يأتى ولم يقع بعد، فجيء بما يطابقه في استقباله، أما آية البروج فقد تقدمها؛ قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) (البروج: ١٧- ١٨)، وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه، وهؤلاء مستمرون على تكذيبهم فقيل: (في تكذيب)، وجيء بالمصدر ليحرز تماديهم وأن ذلك شأنهم أبداً فيما أخبرهم به وفيما يدعوهم إليه وينهاهم عنه، ولفظ المصدر أعطى لما قصد من هذا من لفظ المضارع، فجيء في كل من الآيتين بما يناسب"[2]، ويمكن عزو تقديم المضارع في الانشقاق على الاسم في البروج؛

---

[1] البحر المحيط ٤٤٢/١٠.

[2] ملاك التأويل ٥٠٥/٢.

أنهم لما كانوا يكذبون كثيرا ومستمرون فيه وسموا به وثبت عليهم؛ فقال في البروج: (في تكذيب) بعدما رآهم يتحرون الكذب ويصرون عليه.

المطلب الثالث: مناسبة عنوان السورتين لمضمونهما

تفردت سور القرآن الكريم بوضع عنوان لكل سورة، ولم يكن هذا معروفا عند العرب في هذا الوقت بصورته الحالية، والقرآن نزل على ما تعارف عليه الناس لذا كان العنوان ضروريا لارتباطه بالنص ارتباط الروح بالجسد، وإذا كان أمر العنونة غير مشهور عند نزول القرآن فلا ينفي قيمته وأهميته وارتباطه العميق بالنص وهذا ما أثبته الواقع العملي؛ ليقع الاهتمام بالعنوان في العصر الحديث ويصبح علما يعرف بعلم العنونة، ولباحثين أوربين دور في العناية به وبيان علاقته بالنص والمتلقي؛ من هؤلاء: لوسيان گولدمانL.Goldmann، وروجر روفرRoger Rofer، جيرار جنيت G.Genette، وغيرهم، فعلم العنونة عند الناقد الفرنسي جيرار جينيت مثلا " قدم – فيه- دراسة شاملة حول الموازيات النصية عالج فيها العنوان بعمق وبصفة منهجية انطلاقا من تحديد موقعه ووظائفه"[١]، في كتابيه (عتبات وأطراس)؛ فعرض لفكرة النص الموازي والتعاليات النصية ودورهما في فهم النص، وذلك لأن العنونة أو (المُناصَّة) في الدراسات الحديثة أحد العتبات المهمة أو ما يمكن وصفه بأنه نص مواز للنص، "ومع ذلك، يحدث ألا يكون العنوان عتبة هامة، ولا بابا للنص في بعض الإنتاج الإبداعي، لما تحمله الدلالات، والتلميحات، والإشارات الواردة في المتن، والتي لا يمكن- حسبَ المبدع- أن ينتظمها عنوان واحد، جامع مانع؛ فيكون العنوان مُعمقا لتلك الدلالات من الناحية التأويلية دون الإفصاح عنها، أو تأطيرها، ومن ثمّ فهو لا يُقرأ قراءة لغوية

[١] قراءة في كتاب سيمياء العنوان لبسام قطوس، الطيب بودربالة، مجلة سيمياء والنقد الأدبي، منشورات الجامعة، جامعة بسكرة، الجزائر، ص٢٨.

معجمية وإن كان هذا واردا، ولكن لا بدّ من قراءة أخرى، تتضح معالمها من خلال قراءة المتن قراءة استنباطية تأويلية"[1].

وقد أسهمت عناوين السور في لفت النظر إلى أهمية العنوان قبل أن يعرف الباحثون أهمية هذه الخطوة التي تركت أثرا بالغا؛ لأنها "مكنت من صياغة العنوان صياغة تتسم بالإيجاز والإعجاز، فإن أسماء سوره الكريمة وعنواناتها مكنت من التطور في اتجاه العنوان المناسب للنص"[2]، ومن ثَمَّ قال قوم بتوقيف أسماء السور وآخرون بالتوفيق، ولكن الواضح أنها توقيفية كما القرآن لا دخل للبشر في اختيارها؛ يقول الطبري: "لسوَر القرآن أسماءٌ سمّاها بها رسول الله –صلى الله عليه وسلم"[3]، فهي وحي خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وقد قصر قوم علاقة عنوان السورة بقصة تدور داخلها؛ كقصة البقرة والمائدة وغيرها، ولكن ما بال سورة كآل عمران وقد ذكر فيها أنبياء آخرون وقضايا وتشريعات؛ مما يعني تقديم ما ذكر في العنوان والاهتمام به لكن لا نهمل ارتباط العنوان ببقية القضايا– حتى الفونيم على المستوى الصوتي كأصغر وحدة لغوية غير دالة– بل نأخذ من ذكر العنوان آلية لفهم النص وفك شفراته للوصول إلى التأويل الأمثل للمتن، وسورة مريم مثلا لا يمكن أن نكتفي منها بذكر السيدة مريم وقصتها فحسب بل نجعل منها سراجا يضيء دروب النص القرآني في السورة، ولو سلمنا بذلك فلا بد أن نتعامل مع سورة كالكهف بأن فيها كهوفا معنوية أخرى غير الكهف المذكور، وأن نجعل كل قصة

---

[1] النص الموازي في مجموعة (وثابة كالبراغيث) لجمال الدين الخضري، د. مسلك ميمون، موقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، http://www.wata.cc/forums/showthread.php، ٢/٣/٢٠١٢م.

[2] العنوان في الأدب العربي (النشأة والتطور)، محمد عويس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م، ص٨٨.

[3] جامع البيان للطبري ١/١٠٠.

منها كهفا خاصا يناقش زاوية مجتمعية ليقدم لها الحلول والعلاج، وفي الممتحنة تفوح رائحة الامتحان في كل آية من آياتها؛ وإذا كان الأمر كذلك فسورتا الانفطار والانشقاق تحملان شيوع هذه المعاني في كل جنبات السورتين، وهو ما نريد أن نكشف عنه هنا؛ حيث ارتباط عنوان كل سورة بمضمونها مع بيان وحدة نسق السورتين وتقارب نظمهما لتقارب عنوانهما وقضيتهما.

والعنوان مفتاح دلالي لمتلقي النص يداعب خبرات المتلقي ومعارفه ليقدم له ومضة معنوية ومادية ويهيّئ قارئه لاستقبال النص ويعقد ألفة وخبرة مسبقة عنه، والنص القرآني كتاب موعظة وهداية؛ لذلك تحتاج الصورة الذهنية للعنوان من متلقيه إلى تأمل وروية وانتظار لبروزه في السورة، وقد ناسب عنوان الانفطار موضوع السورة وتركيبها، كما ناسب عنوان الانشقاق موضوع السورة وتركيبها، وهنا نعرض بعض القضايا التي تبين هذا التناسب.

- **مناسبة عنوان الانفطار لمضمونها**

يتضح من مقاصد سورة الانفطار اهتمامها بمبتدأ الأهوال والشرارة الأولى للانفجار الكوني، ثم تنتقل إلى خطاب الإنسان ومقابلتة كرم ربه بالجحود، وتنص على تسجيل الأعمال بأن كل شيء يكتب لدى ملائكة كرام كاتبين يحفظون أعمال العباد، لينقسم العباد بعد ذلك إلى بر وفاجر والكل يلقى جزاءه.

وقد تصدر انفطار السماء الآية الأولى لكونه أعظم الأهوال ثم تلاه ذكر النجوم وهي جزء منها، ومن بعده ذكر أهوال البحار والقبور، ومناسبة الألفاظ هنا بين السماء والنجوم من جهة كونها في السماء ثم البحار والقبور من حيث هي أماكن وقبور للأموات في الأرض؛ فالمرء إما أن يكون البحر قبرا له أو يكون البر قبرا له، واختص البر بذكر القبر؛ لأنه موضع تعارف عليه الناس في حفظ موتاهم وجاء البحر عاما

دون ذكر لتخصيص؛ لأن البحر كله قبر لمن مات فيه، أو أن المشهد يوحي بصورتين متضادتين فبينما البحار في تفجيرها تقضي على من بقي من الأحياء عند قيام الساعة، فإن القبور تخرج من بداخلها ليبدأ الحشر والحساب؛ فالأهوال متلاطمة متداخلة، ثم تنتقل السورة إلى تذكير الإنسان بخلقه من العدم، فهو الذي أوجد مادة الخلق ثم أخرج منها هذا الإنسان وسواه وعدله وصوره، وهو الذي يسجل كل حركة له وسكون، وإذا كانت السماء تنفطر، فالبشر كذلك ينفطرون إلى مؤمن وكافر، والسورة على قصرها تكشف جانبا دقيقا ومهما عن خفايا كونية ستحدث يوم القيامة؛ كانفطار السماء وانتثار النجوم وتفجر البحور وتبعثر القبور، وكلها أفعال مطاوعة تستجيب فيها المخلوقات لرب العالمين وتطيعه فيما أمر به.

وبعد هذا العرض لمكونات السورة ومحتوياتها يأتي دور بيان ارتباط مضمون السورة بالعنوان؛ وهو الانفطار الذي يشيع في جنبات السورة فلا يقف عند مفتتحها؛ فالانفطار باد في كل آية ومقطع؛ ففي المقطع الأول: (أهوال القيامة) نجد أن الانفطار هو الأصل في كل ما يحدث من خراب يلحق السماء والكواكب والبحار والقبور، ولكن باختيار ألفاظ تخص كل ظاهرة منها؛ فالانفطار باد في الانتثار والتفجير والبعثرة وهي أهوال تلحق الظواهر الكونية وتدمرها كما الانفطار.

وفي المقطع الثاني: (خطاب للإنسان) وفيه نداء مباشر له عله يستجيب وفيه انفطار واضح لحاله إذ يقابل كرم الله وعفوه ورحمته بالجحود والعصيان، وقد بينت الآيات أثر الانفطار العميق بين العقد الذي عقده الإنسان على نفسه بالعبودية وعدم الإشراك ثم هو ينقض هذا العهد؛ قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف:١٧٢)؛ فالانفطار واضح الدلالة في فعل هذا الإنسان الذي

قابل خلقه وتسويته وتعديله وتركيبه في أحسن صورة بالغرور والإنكار؛ لذا خوطب خطاب التعجيب من حاله.

ثم يبدو انفطار ثالث: في (إصرار المكذبين على إنكار الحق الواضح ورفض تكليفات الإيمان بالله تعالى) رغم ظهور الأدلة والبراهين على صدق ما جاءت به الرسل، ثم يأتي انفطار رابع في (الفصل بين الأبرار والفجار) فصلا تختلف فيه مصائرهم وهو نتيجة للانفطار السابق حيث الفصل بين فريقين متضادين يوم القيامة والفطر مفرق بينها مقاما وحالا؛ فبينما الأول في نعيم مقيم، يذهب الآخر إلى جحيم مستقر، وهو أشد أنواع الفطر إيلاما حيث تتقطع علاقات القربي بين الابن وأبيه وأمه وأخيه وفصيلته وزوجه، انفطارا يحث المتلقي على الإذعان والخضوع بنفسه وبأنفس من يعول حتى لا يجمع بين ألم الفراق وألم العذاب، وختم السورة بانفطار النفوس فلا تملك نفس لأخرى شيئا، وينفطر الأمر من أيدي ملوك الدنيا ليذهب إلى مالك يوم الدين.

وبين البدء والختام تذكير للنفوس مرة بالتهديد وذكر الأهوال كما في البدء، ومرة بالتذكير والإقناع والحجة كما في الختام؛ ليتكامل أسلوب الدعوة ويحدث أثره المطلوب.

- **مناسبة عنوان الانشقاق لمضمونها**

تزداد هوة الانفطار في هذه السورة لتسجل مرحلة تالية أشد هولا من الأولى وأكثر اتساعا وانتشارا حيث تلحق الأهوال جوانب الأرض جميعا فلا يبقى موضع إلا مد وبسط ولَفَظَ ما بداخله، ومن ثَم كُشف عن لفظ الأرض بعد أن كان خافيا في السورتين السابقتين.

وتبدأ مقاصد الانشقاق بذكر لون جديد من الأهوال؛ فالسماء تنشق وتتصدع والأرض تُمد وتبسط ويخرج ما فيها وهما منقادتان طائعتان لله تعالى، ثم يخاطب الإنسان كما خاطبه من قبل في الانفطار، ثم يكمل ما ذُكر في الانفطار من تسجيل االملائكة الكاتبين لأعمال العباد؛ فذكر هنا تسليم هذه الكتب التي دون فيها أفعالهم من قبل للمؤمن والكافر على السواء، ثم تنتقل السورة إلى إقسام الله- تعالى- بمخلوقاته مختصا الشفق والليل والقمر بالتعظيم، ثم يعقب هذا تساؤلا عن إنكارهم للدين الواضح بعد كل هذه الآيات، ناعتا إياهم بالكفر والتكذيب، وختم السورة بعاقبة من كانت هذه صفاته بالعذاب الأليم.

أما عن شيوع الانشقاق في جنبات السورة؛ فالعنوان يزداد وضوحا في افتتاحها بإجمال ظاهرتي السماء والأرض لتكشف السورة عن اتساع الأهوال؛ فالسماء بما فيها تنشق تماما والأرص تمد لتلقي ما بقي بعد بعثرة القبور ليظهر على ظهرها ما كان خافيا؛ كالكنوز والعظام البالية وغيرها، حيث يراها الإنسان فيعرف هوانها أمام هذا المنظر المهيب، ولو جاء بها ومثلها ما افتدى نفسه من العذاب، فيقع الانشقاق بين هذا الانسان وبين ما ادخر وكنز.

ثم يأتي الانشقاق التام مع الإنسان في خطاب التذكير الذي بدأ من قبل في الانفطار بالعتاب ليبين أن للإنسان كدحين: أحدهما صالح وآخر غير صالح ليجازى بما قدم واختار من السبيلين، ثم تقدم السورة انشقاقا ثالثا تتباعد فيه المنزلة في منظر أخذ الكتاب حيث تزداد الفرجة اتساعا مع انشطار كبير بين الفريقين، وبخاصة أنها عرضت لأثر الحساب ثم الجزاء.

وتنقلنا السورة إلى انشقاق بين النور والظلمة ماديا ومعنويا وهما ثنائية تتصل بهذا الانشقاق العظيم بين الإيمان والكفر، ليقسم بالشفق وهو آخر النهار ثم الليل ثم

القمر الذي يجلي ظلمة الليل، فوقعت الظلمة بين نورين، والأدلة واضحة على حقيقة البعث ولا مسوّغ لإنكارها، واختار لفظ (الشفق) على طريقة المجاز المرسل فذكر الجزء وأراد الكل وهو النهار لمناسبة الشفق لمجاوِره الليل، والترتيب واضح في تسلسل الحجة بين النور ثم ما طمسه- ممثلا في الليل- ليأتي القمر فيكشف خفاء ما ظُن طمسه.

وبينت الخاتمة مبالغة هذا الفريق في الانشقاق عن منهج الحق الواضح؛ فهم كما بينت مقدمات القضية (لا يؤمنون، ولايسجدون) ثم هم (يكذبون، ويجمعون) ليكيدوا للرسول والقرآن والدين، فكان جزاؤهم يناسب فعالهم.

وقد أوضح السلم الحجاجي عن غاية الشقاق في ختام السورة، فتساءل في الحجة الأولى عن سبب إعراضهم عن الإيمان بالبراهين الساطعة، وبين في الحجة الثانية أنهم لا يسجدون عند سماع القرآن وهم أعرف الناس بلغته ونظمه وأسلوبه، ليصل إلى نتيجة هي التكذيب المستمر بالدين وحشد الشركاء للخلاص منه؛ ولذا فالنتيجة الحتمية هي العذاب الأليم الذي بدا عليهم- من أفعالهم- أنهم ينتظرون وقوعه.

المطلب الرابع: تقارب نسق ظاهرة التكرار بين السورتين

ظاهرة التكرار من آليات تناسق النص وحبكه وإحكام نسجه داخليا، ولا يخلو نص من هذه الظاهرة المهمة، وقد بدا ظاهرا وملفتا للناظر في السورتين تشابه النظم من تكرار مفردات أو بنيات لغوية أو أساليب أو قضايا، وهو ما يشير إلى تقارب نسق السورتين من جهة وإلى التأكيد على تكامل الترتيب المصحفي من جهة أخرى، وقد تبين من قبل آليات تقديم الانفطار على الانشقاق؛ ومن بينها دواع لغوية تتصل بدقة المفردات وأخرى مضمونية سياقية تتصل بالتسلسل المنطقي لأحداث القيامة.

وهناك عدة محطات متشابهة للتكرار بين السورتين لا في السورة نفسها؛ ودلالة التكرار تكون قوية في بناء السورة الواحدة، فكيف وقد تبين وضوحها بين سورتين متقاربتين إلى حد التماثل؛ وقد حصرت الدراسة تسعة مواضع للتكرار بين السورتين تشابهت طريقة إنتاجهما؛ وجاءت على النحو التالي:

التكرار الأول: تكرار الشرط في مفتتح السورتين

بُني مفتتح السورتين على الشرط مع ذكر ظواهر متنوعة تعدد من خلالها ذكر الشرط، وما فصّل في السورة الأولى أُجمل في الثانية؛ فذكر في الانفطار: (إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ۝ وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ۝ وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) (الانفطار: ١- ٤)، ثم ذكر مثل هذا في الانشقاق؛ فقال تعالى: (إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ۝ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ۝ وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّت) (الانشقاق: ١- ٥)؛ فقد تشابه نسق مفتتح السورتين إلى جانب أسلوب الشرط في اختيار المفردات والفاصلة ورويِّها، ودل تكرار الشرط في السورتين على بيان قدرته سبحانه؛ يقول الألوسي: "وتكرير كلمة (إذا) لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة"[1]، فكل جملة تدل على حدث مختلف عظيم، وهول من الأهوال يفزع النفوس.

وجاءت أفعال الشرط في سورة الانشقاق على وزن ما جاءت به نظيرتها في الافتتاح، فنجد (انْشَقَّتْ، ومُدَّتْ، وَحُقَّتْ) بما فيهما من معنى المطاوعة المناسب للأهوال، ومناسبة الماضي لأحداث مستقبلية متحققة الوقوع، ثم ختم الفاصلة بالتاء الساكنة.

[1] روح المعاني ١٥/٢٨٨.

وإذا كان الذكر الحكيم قد عبر في السورة الأولى بالانفطار فقد عبر في الثانية بالانشقاق، والملفت للنظر اتفاق السماء والأرض في الانشقاق لغة حيث يقع الانشقاق لهما على حين تختص السماء منفردة بظاهرة الانفطار دون الأرض؛ فالمتدبر للسياق القرآني يظهر له أن الهول الثاني من الانقلاب الكوني المصاحب للسماء هو الشق أما الهول الأول لها فهو الفطر، وكذلك الهول الثاني المصاحب للأرض هو المد لا الشق، لأن الشق هو الهول الأول لها؛ وهو ما يستنتج من ذكر أحوالهما مع نفي ادعاء نسبة الولد إلى الله؛ قال تعالى: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) (مريم:٩٠)، وأما استجابة الظاهرتين؛ فخفي في الانفطار ظاهر في الانشقاق في قوله تعالى: (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)، وحمل أسلوب الشرط على عاتقه لفت النظر إلى جمل الافتتاح وبخاصة أن هذا التكرار بين السورتين متشابه في بنائه الأسلوبي، كما أنه مكرر بكثرة داخل كل سورة على حدة؛ ليشكل حالة للتساؤل والاعتبار والنظر في توظيف هذه الظاهرة.

كما أن جواب الشرط في السورتين يبين ضربا من التقارب بين السورتين؛ فقد حدث إظهار لجواب الشرط في الانفطار؛ في قوله: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) (٥)، فيما حذف جواب الشرط في الانشقاق، ويمكننا تقديره بالمذكور في الانفطار لتشابه الافتتاح بينهما ولتأكيد وحدة الجواب أو النتيجة وهو العلم.

التكرار الثاني: تكرار النداء على الإنسان بين السورتين

الإنسان محور هذه القضايا ونظرا لمراد السورتين مخاطبته وتذكيره جاء خطاب النداء عليه محددا له، والمتتبع لذكر الإنسان في القرآن كله يتضح له أنه لا يذكر في موضع إلا إذا كان غافلا أو مقصرا؛ ومن بين هذه الخطابات ما ورد في سورة الانفطار لهذا الإنسان المغرور؛ بيانا لحاله وفضحا لخصيصة من خصائص نفسه

المتمردة على العطاء ومقابلتها الكرم بالفجور والعصيان؛ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) (الانفطار: ٦-٨)، وفي النداء إشارات وأغراض أظهر بعضها حين ذكَّره بنعمه عليه في الخلق والتسوية والعدل والتصوير.

وفي سورة الانشقاق نداء على الإنسان الكادح في دنياه، الملاقي ربه لا محالة، فيجازيه على عمله واختياره؛ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (الانشقاق:٦)، وفي النداء إشارة مضمرة يبينها الخبر الذي جاء على مضمون الشرط، ومعناه: (إن تكدح تلق ما قدمت من عمل)، وأكد الفعل دون بيان نوعه أو عدده ليظل عاما حسبما يقدم ذلك الإنسان.

وللنداء قيمة بلاغية حيث جاء "تنبيها يشعر بالاهتمام بالكلام والاستدعاء لسماعه"[١]، وتكرر تركيب النداء كاملا زيادة في لفت الانتباه؛ فقال:(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ) بأداة النداء للبعيد مع (أيها) للتأكيد والتنبيه والإبهام ثم ذكر المنادى الإنسان إزالة لإبهام (أي)، وهو أسلوب مقصود يكشف غرض السورتين في توجيه العناية إلى الإنسان مع بيان تقصيره في إدراك حقيقة خلقه وتكريمه.

وتلا الاستفهامَ نداءُ الانفطار وغرضه التعجب من حاله،، وفيها بسط لخطاب الإنسان وتذكيره بالنعم، فيما تلا الإخبارَ نداءُ الانشقاق وغرضه التعجب أيضا؛ ففي كلتا الحالين سواء كنت كادحا لخير أو لشر فأنت ملاقيه فمجازيك، وللنداء علاقة بما سبقه من ذكر للأهوال في مفتتح السورة؛ فقوله: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ) يبين أن "ما سبقه من التهويل والإنذار يهيىء النفس لقبول الموعظة إذ الموعظة تكون أشد تغلغلا في القلب حينئذ، لما يشعر به السامع من انكسار نفسه ورقة قلبه فيزول عنه طغيان المكابرة

[١] التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٣.

والعناد"[١]، فقد كانت مقدمة السورتين تنبيها سبق تنبيه النداء للتأكيد على ضرورة التيقظ واستقبال أحوال الآخرة الفاصلة بين العباد.

التكرار الثالث: تكرار ذكر لفظ (الرب) بين السورتين

ظهر في السورتين اختيار اسم (الرب) دون غيره من الأسماء وبخاصة في خطاب النداء، فجمع أسلوب السورة إلى جانب الترهيب والتخوف أسلوبا آخر من الترغيب بالأمن والطمأنينة للمتلقي، فجاء بالرب الذي هو عنوان الإنعام والرعاية، وفيه يختلط الحنو بالعتاب؛ لأن "التعبير بالرب مع دلالته على الإحسان يدل على الانتقام عند الإمعان في الإجرام؛ لأن ذلك شأن المربي، فكان ذلك مانعاً من الاغترار لمن تأمل"[٢]، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) (الانفطار:٦)، وقال في الأخرى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (الانشقاق:٦)؛ يقول الرازي: "واسم الرب يدل على التربية بوجوه الفضل والإحسان"[٣]، وعزا الطاهر ذكر اسم الرب هنا لمقام التوبيخ؛ فقال: "وإيثار تعريف الله بوصف (ربك) دون ذكر اسم الجلالة لما في معنى الرب من الملك والإنشاء والرفق، ففيه تذكير للإنسان بموجبات استحقاق الرب طاعة مربوبه، فهو تعريض بالتوبيخ"[٤]، وفي الانفطار جمع بين لفظي الرب والكريم، لأن الأصل فيهما الشكر وتذكر النعم لا الكفر والإعراض، و"مخاطبة الربّ تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه"[٥]، ثم إنهم لما أنكروا نعمه عليهم لم يستطيعوا تقبل دعوته لإصلاح حالهم فضلّوا وهلكوا.

---

[١] التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٣.

[٢] نظم الدرر ٢١/ ٣٠٢.

[٣] مفاتيح الغيب ١/٢٤٤.

[٤] التحرير والتنوير ١٧٥/٣٠.

[٥] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٩٥م،٥/٢.

وكرر في الانشقاق كلمة (الرب) في سياق النداء، كما كررت أيضا مرتين في قوله: (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) (٢-٥)، فاستسلام السماء والأرض وطاعتهما واستماعهما لأوامره تعبيرا يدل على استشعارهما لعظمته وقدرته على حفظهما في الدنيا حتى ينقلب الكون فيستبدل بهما سماء وأرضا ليستا بذات السماء والأرض بل بأخرى باقية تصلح لتغير الأحوال؛ يقول سبحانه: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ) (إبراهيم:٤٨)

التكرار الرابع: تكرار أصناف المحاسَبين يوم القيامة

ورد في الانفطار صنفان من أصحاب يوم القيامة: فريق النعيم وفريق الجحيم؛ فقال تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) (الانفطار: ١٣- ١٤)، وفي الانشقاق ذكر حساب الصنفين أيضا؛ فقال: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا۝ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا۝ وَيَصْلَى سَعِيرًا) (الانشقاق:٧- ١٢)، وعلاقة ذكر الكتاب متصل بالانفطار ففيها ذكر ما يقوم به الكرام الكاتبين من الملائكة؛ فقال: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ) (الانفطار: ١٠-١١)

وهذان الصنفان المكرران مرة بوصف حالهما ومآلهما إجمالا كما في الانفطار، ومرة بذكر أحوالهما تفصيلا كما في الانشقاق بداية من استلام كتابهما حتى مآلهما إلى السرور أو السعير، هما من مقاصد السورتين وجيء بهما لتذكير المتلقي بأمرهما؛ لأنهما من أهوال الحساب التي ستوافق أهوال الظواهر من حوله.

التكرار الخامس: تكرار أسلوب التضاد في السورتين

اتسم ذكر الصنفين السابقين في السورة الواحدة بإيجاز مع بيان حال المؤمن، وإطناب وبسط لحال العصاة؛ للتأثير في نفس السامعين حتى يطلعوا على أحوال

العصاة التي هي من دواعي استحضار أهوال القيامة، ولزيادة التذكير لإقامة الحجة عليهم.

وبدا تقارب السورتين في طريقة عرض أسلوب التضاد بين حاليهما، وفي نسبة عدد الآيات وذلك بأن جاء وصف حال المؤمنين في السورتين بنصف عدد الآيات التي وصف بها حال العاصين، ففي الانفطار بنسبة (١: ٣) فكان نصيب الأبرار آية واحدة تصف حالهم، في مقابل ثلاث آيات للفجار؛ قال تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) (الانفطار:١٣-١٦)، وفي الانشقاق بنسبة (٣: ٦) إذ كان نصيب من أوتي كتابه بيمينه ثلاث آيات، في مقابل ست آيات تصف حال من أوتي كتابه وراء ظهره؛ قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا۝ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا۝ وَيَصْلَى سَعِيرًا۝ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا۝ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ۝ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) (الانشقاق: ٧- ١٥)، وهذا الإحصاء المتناسب بين السورتين إشارة إلى حمل المخاطب على تذكر حال من أعرض والانتباه إلى مصيره واجتناب سيرته ومسيرته.

التكرار السادس: تكرار أداة الإضراب بين السورتين

تكرار حرف الإضراب (بل) في السورتين من الظواهر التي تدعونا إلى التأكيد على وجود التقارب في النظم؛ فقد قال تعالى في الانفطار: (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) (الانفطار:٩)، ثم قال تعالى في الانشقاق: (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) (الانشقاق:٢١-٢٢)، فتكرر حرف الإضراب (بل) ووقع بعده جملة في الموضعين وهو "إن وقع بعده جملة كان إضراباً عما قبلها، إما على جهة الإبطال؛ نحو: (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ) (المؤمنون:٧٠)، وإما على جهة الترك

للانتقال، من غير إبطال، نحو: (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) (المؤمنون:٦٢-٦٣)، فظهر بهذا أن قول ابن مالك في شرح الكافية: فإن كان الواقع بعدها جملة فهي للتنبيه على انتهاء غرض، واستئناف غيره"[١]، وهي من العوامل الحجاجية التي تكشف عن بيان حجة وبرهان على القضية التي ترد فيها.

وفي موضع الانفطار ذكرت (بل) وهي من تحتمل الإضراب بنوعيه الإبطالي أو الانتقالي حسب ما يفهم من المعنى؛ ففي قوله: (بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) (الانفطار:٩) إبطال لوجود ما يدعو إلى غرورهم لو كانوا يعقلون، وعن الراغب: (بل) هنا لتصحيح الثاني وإبطال الأول"[٢]، وقد يفهم الإضراب كانتقال من غرض إلى غرض؛ ففي الوسيط ورد أيضا أن (بل) هنا "إضراب انتقالي، من التعجيب من عدم إيمانهم مع ظهور كل الأدلة على وجوب الإيمان"[٣]، حيث أبطل غرورهم مع غياب ما يدعوهم إليه مؤكدا كذبهم وافتراءهم، ويفهم كونه انتقاليا بتجاوز حالهم السابق تعريضا بهم ولإقامة الحجة عليهم، فقد فضح الله _تعالى_ ما تضمره نفوسهم الخبيثة، وقد سبقها زجر لاغترار الإنسان بحلم ربه، هذا الغرور الذي أنساه ما خلق لأجله من العبادة وفعل الخيرات، لأجل هذا خوطب الإنسان هنا خطاب المنكر ليوم القيامة مع علمه به.

وفي موضع الانشقاق: (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) (الانشقاق:٢٠-٢٢) استعملت (بل) للإضراب

[١] الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين بن علي المرادي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م، ص٢٣٦.

٢ الوسيط ٣١٢/١٥.

٣ السابق ٣٣٩/١٥

الانتقالي، فبعد أن نفى عنهم الإيمان بالدليل على أنهم لا يسجدون لأن الإيمان يستتبعه السجود والخضوع لأوامر الله، فكانت النتيجة أن جاءت (بل) لبيان أن هذا الاضراب "انتقال عن كونهم لا يسجدون عند قراءته إلى كونهم يكذبون به صريحا، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر والإشعار بعلة الحكم"[١]، وحسن توظيفها في السورتين؛ لأنها جاءت لوقف خداع المشركين وجدلهم العقيم لتنقل المشاهد إلى إثبات حقيقة تكذيبهم بالدين الواضح الذي لا مراء فيه ولا جدال، وهي تثير في السامع اهتماما بما قيل من قبل وبما انتقل إليه، وتحرص على إثبات ما بعدها مع لفت الانتباه إلى ضرورة الوعي به.

التكرار السابع: تكرار لفظ الجلالة (الله) في خاتمة السورتين

ورد لفظ الجلالة في السورتين مرة في كل سورة، ولا يذكر لفظ الجلالة إلا إذا كان المقام مقام إثبات للألوهية والواحدانية؛ فهو اسم يربي المهابة في نفوس سامعيه، فورد في الآية الأخيرة من الانفطار في قوله تعالى: (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (الانفطار:١٩)، وفي الانشقاق جاء في مقطع الختام أيضا: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ۞ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ۞ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) (٢٢- ٢٥)

ذُكر لفظ الجلالة (الله) في ختام السورتين وهذا الذكر جاء لغرض نسبة ما ظهر من الأهوال إليه وتأكيدا على حتمية الرجوع إليه ومن ثَمَّ تذكيرا بأن الملك كله له، فهو الذي يعلم ما تخفيه صدورهم وسوف يحاسبهم عليه، ولإظهار الاسم الجليل في الخواتيم قيمة أخرى تدل على لفت النظر إلى مبدأ الثواب والعقاب واختصاصه وحده بالحكم

---

١ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ، ٢٩٢/١٥.

والقضاء في هذا اليوم الموعود، والختام "مثل الفواتح في الحسن، لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوف إلى ما يذكر بعد"[1]، ولما كانت سورة الانفطار الأقصر في عدد آياتها فقد ختمت الآية الأخيرة بذكر لفظ الجلالة مع بيان نسبة الملك إليه دون غيره، وفي الانشقاق يؤكد قبل نهاية السورة علمه بما يضمرون من الكذب، وقد وقعت الآية الوارد فيها لفظ الجلالة معترضة لغرض التهديد والوعيد لمن خالف أمره، فختم السورتين بعودة الأمر إليه دون سواه.

التكرار الثامن: تكرار نعتهم بالتكذيب في السورتين

كرر البيان القرآني نعتهم بـ(الكذب) في السورتين وورد بصيغة الفعلية الدالة على استمراره وتجدده مبينا منهجهم في الجدل العقيم وأن ما يدَّعونه كذبا وزورا وقلبا للحقيقة الواضحة، فلو أن لهم برهانا لأظهروه كما تظهر لهم براهين الحق وهم عنها معرضون، فقال في الانفطار: (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) (الانفطار:٩)، ثم أكد هذا الكذب بذكره صفة لهم في الانشقاق فقال: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) (الانشقاق:٢٢)، فكرر التكذيب بين السورتين وبخاصة بعد أداة الإضراب للتعجيب من حالهم بعدما انكشف لهم من الدلالات والبينات على وجود هذا اليوم وحقيقة ما فيه من الهول العظيم.

ولما تلت الانشقاق الانفطار حذف المتعلق فيها لذكره في الانفطار إذ يمكن تقدير المتعلق بأنه خاص بيوم القيامة كما ذكر في الانفطار قبلها؛ أي: بل الذين كفروا يكذبون بيوم الدين أو بما يوصل إليه من إيمان به وعمل له.

التكرار التاسع: تكرار ختم السورتين بخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.

---

١ الإتقان ٣/٣٢٠.

الختام هو آخر ما يقرع سمع المتلقي، وله دوره الإقناعي فكلما كانت النهاية مناسبة لحاله كان الأثر باقيا يثير التساؤل ويحثه على التفكر والنظر، وفي ختام السورتين اختص رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالخطاب ليعرض له ما يبلغه عنه وليكون شاهدا ومبشرا ونذيرا للناس؛ فقال في الانفطار: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (الانفطار:١٧-١٩)؛ ولذلك ذهب الطبري إلى أن الخطاب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- "يقول - تعالى ذكره- لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: وما أدراك يا محمد، أي: وما أشعرك ما يوم الدين؟"[١]، تعظيما له، وهل هناك أعظم هولا من يوم الحساب والجزاء، وكل ما قيل في دراية الغيب كان الخطاب فيه لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- وبخاصة فيما يتصل بأهوال القيامة التي تكرر ذكرها للتعظيم في كثير من مواضع النظم القرآني؛ منها قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) (الحاقة:٣)، وقوله: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ) (المرسلات:١٤)، وقوله: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) (القارعة:٣)، وجميعها يتصل باختصاص يوم القيامة بالسؤال الذي يحمل دلالة التخويف والترهيب، ومن ثم ختم السورة بخطاب النبي- صلى الله عليه وسلم- ليبين له عظيم شأن هذا اليوم وليبلغ الناس بهوله، وقيل إن الخطاب للإنسان وهو بعيد لأنه عدل بعد خطاب الإنسان إلى خطاب الجمع في قوله: (كلا بل تكذبون بالدين)، فالخطاب هنا خاص لرسوله عام لكل متلق له.

وفي الانشقاق ختم السورة بخطاب النبي- صلى الله عليه وسلم- تسلية له على سبيل الاستعارة: (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) (الانشقاق:٢٤-٢٥)، وذلك لما بدا من إصرارهم على المعصية كأنهم

[١] جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري ٢٧٢/٢٤.

ينتظرون تأكيدا على حسن تعلقهم بما اختاروا، فبدا التبشير في موضع الإنذار؛ "لانهماكهم في المعاصي الموجبة للعذاب وعدم استرجاعهم عنها منزلة الراغبين في العذاب حتى كأن الإخبار به تبشيرا وإخبارا "[1]، وميز في الخطاب بين الفريقين المتقدم ذكرهما؛ وهما أصحاب الشمال وأصحاب اليمين، فبشر الأول بالعذاب وبشر الثاني بالأجر العظيم على طريقة الاستثناء المنقطع بأن تكون (إلا) بمعنى (لكن) تسلية أخرى لفؤاد النبي وتطييبا لنفسه، وقال الأكثرون من أهل العلم كما ذكر الرازي: "معناه إلا من تاب منهم فإنهم وإن كانوا في الحال كفارا إلا أنهم متى تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر وهو الثواب العظيم"[2]، وهنا يقع مكمن مراد البشارة.

ويحمل ختام السورتين أمرا ملفتا ففي نهايتهما معا خطاب للنبي- صلى الله عليه وسلم- تهديدا ووعيدا لمن عصى وتبشيرا ومسرة لمن أطاع، وإذا كان الخطاب للناس كافة فهو لرسول الله هنا ليوضح أن طاعة رسوله هي طاعة لله تعالى، فهو المأمور بتبليغ رسالة ربه، وللمتلقي في كل زمان ومكان أن يعي هذا وأن يلتزم بهذه التوجيهات الإلهية.

المطلب الخامس: ظاهرة الالتفات وتحولات النسق بين السورتين

يتسع أسلوب الالتفات حتى لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من صورة من صور هذا اللون من التحول في البناء الأسلوبي، ولأهميته ودوره العميق بين الأساليب البلاغية المستعملة في لغة التعبير عده ابن المعتز من وجوه البديع، فقال بأنه:

---

[1] روح المعاني ٢٩٣/١٥.

[2] مفاتيح الغيب، للرازي، ١٠٥/٣١.

"الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر"[١]، وحدوده عند البلاغيين "نقل الكلام من حالة إلى أخرى مطلقا"[٢]، وقد حظيت السورتان بكثير من التحولات في النظم الذي ناسب سياقه تحولات الانقلاب الأخروي.

ونرصد هنا عددا من التحولات في النسق الأسلوبي للسورتين مما يؤكد تقارب النظم والقضايا المشتركة بينهما؛ لتغليظ الموعظة والانتباه لأحداث قادمة هي الأولى باهتمام الإنسان وعنايته؛ ومزية الالتفات "أنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"[٣]، وكلام الزمخشري جامع مانع في وصف هذا النوع من التحول الأسلوبي الذي يختص بحال المتلقي، كما أنه لا ينفي أن يكون هناك حالات أخرى للتحول والتنوع في الأسلوب على حسب سياق المقام.

وما يدعو إلى زيادة ظاهرة على أخرى ما تختص به دون غيرها في التعبير عن تنوع الفوائد والدلالات وبخاصة في مواقع التأثير والإقناع، وهو ما يتبين من اختيار أسلوب دون آخر؛ يقول الجرجاني: "ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم، وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش"[٤]، فأساليب الكلام كألوان الصور والنقوش يجب أن تناسب مكانها من المقام حتى تقع عند الناظر موقع الحسن والقبول.

---

١ البديع. عبد الله بن المعتز، تحقيق: اغناطيوس كراتشقوفسكي مطبعة المثنى، بغداد، ط ١٩٦٧م، ص٥٨.

٢ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٧٢.

٣ الكشاف للزمخشري ١/١٤.

٤ دلائل الإعجاز، ص٨٢.

وقد حفلت السورتان بالعديد من صور الالتفات منها التفات الأساليب، فبدأت بالشرط وهو إنشاء غير طلبي ذكر من خلاله أخبارا تكشف هول يوم القيامة، ثم انتقل إلى أسلوب النداء وهو إنشاء طلبي قصد التنبيه والتعجيب من حال المنادى المنصرف عن أهوال هذا اليوم.

وتكرر هذا اللون من الالتفات في السورتين؛ فقال في الانفطار: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) (١) فشمل الشرط من الآية الأولى حتى الخامسة، وفي الآية السادسة عدول إلى النداء؛ قال: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) (٦).

وفي الانشقاق مثل ذلك؛ قال تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) (١) ليقع الشرط من الآية الأولى حتى الخامسة أيضا، وفي الآية السادسة تحول النظم إلى النداء، فقال: (يأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (٦)، فجاء النسق واحدا في عدد الآيات التي تقدمت التحول من الشرط إلى النداء.

فإنه لما قدم ذكر الأهوال انتقل إلى أسلوب النداء؛ لأن السامع يسأل لمن هذه الأهوال؟، فقال يا أيها الإنسان ولو قدم النداء ثم أعقبه بالأهوال لكانت على سبيل الإخبار ومحو الجهل بها دون أسلوب الترهيب والتخويف لزيادة الانتباه والتفكر.

التحول من خطاب الإفراد (للجنس) إلى خطاب الجمع

ورد هذا التحول في النظم في سورة الانفطار؛ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) (الانفطار:٦-٨) فانتقل من خطاب الإفراد (للجنس) إلى خطاب الجمع؛ في قوله: (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) (الانفطار:١٠)، والتحول هنا من خطاب الإفراد إلى خطاب الجمع.

وخطاب الإفراد –هنا– للجنس فليس مقصوده فردا بعينه، وسبب العدول أن الخطاب جاء للمفرد ليكون أكثر وقعا في نفس السامع ولتذكير كل فرد على حدة بنعم الله عليه؛ وبخاصة في خلقه وتصويره وتسويته وهي أمور يفتخر بها كل فرد ويختال على بقية أفراد جنسه وليس له اختيار في خلقه على هذه الخلقة أو تلك بل هو من صنع الله تعالى، وهنا يذكره سبحانه بما به تميز وافتخر، ثم انتقل إلى خطاب الجمع لأن أكثر الناس يكذبون بيوم القيامة إما تكذيب وقوع أو تكذيب استعداد؛ لذا وقع في الخطاب "ردع وزجر لما دل عليه ما قبله من اغترارهم بالله تعالى، أو لما دل عليه ما بعد (كلا) من تكذيبهم بيوم الجزاء والدين أو شريعة الإسلام"[١]، وجاء التعبير بالفعل المضارع (يكذبون) "وفي المضارع أيضا استحضار حالة هذا التكذيب استحضارا يقتضي التعجيب من تكذيبهم؛ لأن معهم من الدلائل ما لحقه أن يقلع تكذيبهم بالجزاء"[٢]، وقراءة الجمهور: تكذبون (بتاء) الخطاب، وقرأ أبو جعفر (بياء) الغيبة على طريقة الالتفات، وظهر موضع الالتفات في استعمال كاف الخطاب المفردة التي جعلت الخطاب كأنه للمفرد لتؤكد على هذا التحول، وقصدية التعبير به لنجاعة هذا الأسلوب مع المخاطب المفرد الذي ينتبه إلى الخطاب إذا كان موجها إليه؛ فيعيره اهتماما أكثر دون خطاب المجموع الذي يتقاسمه مع غيره، وبدا الانتقال من خطاب الإفراد إلى خطاب الجمع في هذه السلسلة من الضمائر (غرك/ بربك/ خلقك/ فسواك/ فعدلك/ ركبك) إلى (تكذبون/ عليكم/ تفعلون).

هذه الظاهرة برزت أيضا في سورة الانشقاق حيث التحول من خطاب الإفراد (للجنس) إلى الجمع في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا

[١] البحر المحيط ١٠/٤٢٢.

[٢] التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٩.

فَمُلَاقِيهِ) (٦)، ثم التفت إلى قوله تعالى: (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) (الانشقاق: ١٩) و"قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى لتركبَن بفتح الباء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم لتركبُن بضم الباء"[١]، وفي هذا الموضع يتداخل خطاب الواحد مع خطاب الجنس؛ لأن المراد مخاطبة الجنس مع اختصاص كل فرد من أفراده بالموعظة وكأنه خطاب لواحد ثم تلا هذا الخطاب خطاب جمع ظاهر(لتركبُن) بضم الباء على قراءة حفص- التي نحن بصدد الدراسة من خلالها-، وقال: (لتركبُن)؛ لأن تغير الأحوال لن يكون لفرد واحد بل للجماعة فخطبوا به، ولكل قوم في كل زمان أحوال تختلف عن زمان سابقيهم ولاحقيهم.

تحول من الخطاب إلى الغيبة والعكس

في سورة الانفطار تحول آخر من الخطاب في قوله تعالى: (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّين) (الانفطار:١٠) إلى الغيبة في المقطع التالي: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) (١٣-١٦) وهذا المقطع يأتي تعقيبا على ما سبق من ردع الإنسان وتوبيخه، فهناك فريقان يوم القيامة، وقد لحق التوبيخ الفريق الثاني فريق الفجار، وإذا كان الخطاب عاما للإنسان ليزدجر؛ فقد عدل في قوله: (يَصْلَوْنَهَا) إلى خطاب الغيبة ليناسب مقام تلك الفئة التي لم تنزجر بالتنبيهات والموعظة، ولإشهاد من يستمع إلى الخطاب على فسوقهم وعصيانهم لأوامر الله تعالى فأعرض عن خطابهم إلى خطاب الغيبة، فناسب الإعراض عنهم أيضا إعراضا آخر عن خطابهم.

---

[١] **كتاب السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، تحقيق: د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ، ص ٦٧٧.**

وفي سورة الانشقاق تحولان من الخطاب إلى الغيبة؛ قال تعالى:(يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) (٦)، ثم قال بعدها في نهاية المقطع: (بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً) (١٥)، حيث انقطع خطاب الإنسان هنا بعد عرض نتيجة الكدح إما إلى جنة وإما إلى نار، ولو سار الكلام على الخطاب لقال: (بلى إن ربك كان بك بصيرا) ولكن السورة مليئة بصور التعجيب والإنكار وإقامة الحجج, فكان الالتفات لبسط الحجة للسامع العاقل على طريقة التعريض يتخلله الأسلوب الحكيم في أن هذا الكادح يجب عليه أن يختار بين الفريقين؛ فريق الحق؛ لأن الله _تعالى_بصير بحاله وسيجازيه على اختياره.

وفي موضع آخر من سورة الانشقاق نجد تحولا أيضا من الخطاب في قوله: (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) (الانشقاق:١٩)، إلى الغيبة في قوله: (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) (الانشقاق: ٢٠-٢١)

والانتقال من الخطاب إلى الغيبة للتعجيب من أمرهم وإقامة الحجة عليهم بدعوة استنكار السامع لفعالهم، ولو جرى الأمر على الخطاب لذهبت الفائدة؛ لذلك قال الطاهر بن عاشور عن الالتفات في هذه الآية إنه "إذا تحقق ذلك فكيف لا يؤمن بالبعث الذين أنكروه، وجيء بضمير الغيبة؛ لأن المقصود من الإنكار والتعجيب خصوص المشركين من الذين شملهم لفظ الإنسان، في قوله: (يا أيها الإنسان إنك كادح)؛ لأن العناية بموعظتهم أهم؛ فالضمير التفات"[1]، وقد شهدت السورتان تحولا يبين تقاربهما في هذا اللون من التحول الأسلوبي.

كما يقع <u>التحول من الغيبة إلى التكلم</u>؛ فضمير التكلم في القسم تاليا لتحول من الغيبة عن حال صنف أصحاب الشمال؛ إذ قال تعالى: (بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا۝

[1] التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٣١.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) (الانشقاق:١٥- ١٦)، فجاء بلفظ الرب والخطاب للغائب في قوله:(ربه) ثم انتقل إلى خطاب التكلم، ولطيفة ذلك تناسب سياق ذكر الرب معجميا أولا مع سياق النداء السابق (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (٦) عندما اختلف الخطاب إلى القسم الذي يستدعي فيه المقسِم بضمير التكلم زاد في تأكيد القسم وتقوية الحكم؛ فانتقل من الغيبة إلى التكلم.

تنوع الالتفات بين الاستقبال والمضي

جاء في سورة الانشقاق تحول في الأسلوب من الاستقبال إلى المضي، فقد دعا المقام إلى استحضار حال هذا المعاند وقد أسقط في يديه ولقي جزاء عمله، وبينت الآيات حالين متباينين لأهل القيامة؛ فقال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا۝ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا۝ وَيَصْلَى سَعِيرًا۝ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا۝ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۝ بلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) (الانشقاق: ٧-١٥)

جاء التوعد بذكر الأهوال المحققة على طريقة الاستقبال باستعمال الأداة (سوف) والانتقال إلى الماضي بألفاظ (كان/ظن) والخطاب حالي، وليس ماضيا، فإنه _تعالى_ يخاطب نبيه ليبين حال المشركين يوم القيامة، والخطاب نفسه أمر مباشر من الله تعالى للنبي يحدثه عن أمر مستقبلي لكنه _تعالى_ لما أراد أن ينقل السامع إلى استحضار صورة أحداث القيامة وكأنها مشاهدة أفاض في عرض موقف الفريقين في المستقبل، وهذا الأسلوب باستعمال الماضي في قوله: (أوتي) يؤكد تحقق وقوع الأهوال، كما أن المتلقي يستطيع قياس صدق هذه القضايا من خلال ما عرف من علم مسبق ومعجزات سيقت إليه وخوارق لا يستطيع لها دفعا أو تأويلا ولا يجد لها نظاما إذ

هي خرق للناموس، ولما أراد أن يطابق حالة بحالة تحول من خطاب الاستقبال إلى حكاية حال ماضية لإبراز المفارقة بين الحالين.

تحول آخر من الإظهار إلى الإضمار والعكس

جاء في سورة الانشقاق تحول في الأسلوب من الإظهار إلى الإضمار؛ في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) (الانشقاق: ٦-٧) كان أصل السياق أن يقال فأما من آتاه ربه كتابه بيمينه، ولكن هذا التحول في السياق كان لداع بلاغي، حيث التفت عن التعبير بالرب مرة أخرى إلى الإضمار مستخدما صيغة البناء لما لم يسم فاعله ماض لتحقق الوقوع، ونظرا لاختلاف المقامين حدث هذا التحول؛ فالأول مقام تعجيب ووعيد وإنذار لتكذيبه بالبعث، والثاني جزاء التعجيب والوعيد وتعريض بحسن العمل والكدح؛ لأن جزاء كل ذلك سيكون على هذه الصورة من الحساب، كما جاء البناء لما لم يسم فاعله مرة أخرى في قوله: (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) (١٠) وذلك لأن مصدر الإيتاء واحد سواء كانت الملائكة أو غيرهم، وسر العدول أيضا الاهتمام بالحدث والعناية به لا بصانع الحدث.

وفي السورة تحول عكسي من الإضمار إلى الإظهار؛ في قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) (الانشقاق:١٦)، ثم قال بعدها: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) (الانشقاق:٢٢-٢٤)، ولو سار السياق على التكلم بعد القسم لقال تعالى: (وأنا أعلم بما يوعون) ولكن تحول الكلام من الإضمار في صيغة التكلم إلى إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة في نفوس السامعين، وكل إظهار للاسم الجليل هو لضرورة تذكير للسامع بقدرته وجلاله على علم ما يسر وما يعلن، و"المرءُ يُوعِي متاعه وماله هذا في هذا، وهذا في هذا، هكذا يعرف الله ما يوعون من الأعمال، والأعمال السيئة مما تُوعيه قلوبهم، ويجتمع فيها من هذه الأعمال الخير والشر، فالقلوب وعاء هذه

الأعمال كلها"[١] ولإظهار الاسم الجليل في موضع إضمار ما في نفوسهم من الشرور خصيصة بلاغية تأتي تعريضا معنويا على اطلاعه على بطائن الأمور وظواهرها، فوافق إظهاره، اجتهادهم في إضمار شرورهم.

الانتقال من الغيبة إلى الخطاب

ذُكر في الانفطار تحول من الغيبة إلى خطاب الرسول- صلى الله عليه وسلم-؛ في قوله تعالى: (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)(الانفطار: ١٦-١٧) والتحول إلى الخطاب جاء على طريقة الطلب بالاستفهام لتعظيم هذا اليوم، والتحول إلى خطاب النبي يزيد من قيمة تعظيم هذا اليوم.

وفي سورة الانشقاق تحول مماثل من الغيبة إلى خطاب الرسول- صلى الله عليه وسلم-؛ في قوله: (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ۝ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (الانشقاق: ٢٠-٢٤) فقد تحدث بالغيبة عنهم بعد حديثه بالخطاب؛ في قوله تعالى: (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) (الانشقاق:١٩)، وجاء الحديث حكاية بطريقة الاستفهام،"المستعمل في التعجيب من عدم إيمانهم وفي إنكار انتفاء إيمانهم، لأن شأن الشيء العجيب المنكر أن يسأل عنه"[٢]، وأعقب التعجب من حالهم مع ظهور الآيات والدلائل على صدق البعث مع التيقن من استحالة إيمانهم ليكون بيان الجزاء في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم وليبشرهم بالعذاب، يقول البقاعي: "ولما ظهر المراد ولم يبق إلا العناد، سبب عن ذلك الإنكار عليهم والتوبيخ والتقريع والتهديد، فقال معرضاً عن خطابهم إلى الغيبة إيذاناً باستحقاقهم

[١] جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م، ٣٢٧/٤.

[٢] التحرير والتنوير ٢٣٢/٣٠.

للأخذ إن لم يرجعوا"[١]، فانتقل من الخطاب في (لتركبن) إلى الغيبة في (فما لهم) ثم انتقل إلى خطاب النبي بعد ذلك ليكون ختاما لهذا الجدل، فناسب تكذيبهم وطغيانهم السخرية والتهكم من حالهم في اختيار لفظ البشارة للعذاب دون الإنذار، وجاء على طريقة الأمر في أسلوب غير متوقع للقارئ الذي يتلقى وصفا لحالهم؛ ليقرع الأمر سمعه في خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.

تحول من بنية الاسم إلى الفعل

ورد في الانفطار تحول من الاسمية إلى الفعلية؛ في قوله تعالى: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (الانفطار:١٠-١٢)

وقد انتقل من الاسم إلى الفعل وخص المضارع بذلك لتجدد علم الكاتبين من الملائكة بكل ما يحدثه الإنسان من خير أو شر لحظة بلحظة، وفيها بيان لأمانة نقلهم لأعمال العباد؛ فهم حاضرون لحظة كتابة الخير أو الشر، ولو قال (عالمين) لأفاد الاسم الثبوت وهذا غير مناسب لحركة الكون ومتابعة تسجيل أعمالهم أولا بأول.

المطلب السادس: القيم التأثيرية الإقناعية للأساليب المعنوية واللفظية

تعددت الأساليب اللفظية والمعنوية في السورتين مع وحدة نسق أسلوبهما الدال على تكاملهما بغية التأثير في متلقي الأهوال، وحجاج من أنكر البعث والحساب، ومن هذه الأساليب ما يلي:

---

[١] نظم الدرر، ٢١/ ٣٤٨.

١- وحدة نسق أسلوب الابتداء في السورتين

افتتحت سبع سور من القرآن الكريم بالشرط؛ وهي سور: الواقعة؛ فقال تعالى: (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)، والمنافقون: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ)، والتكوير: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)، والانفطار: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)، والانشقاق: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)، والزلزلة: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)، والنصر: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)، وقد تشابهت هذه السور في الافتتاح بالشرط، كما سبقت (إذا) غيرها من الأدوات في القيام بمهمة التعبير عن أسلوب الشرط، فلم نجد أداة أخرى غيرها من أدوات الشرط افتتحت بها سور من القرآن وهذا يحملها أبعادا دلالية أكبر من غيرها من أخواتها.

والملاحظ في اجتماع هذه السور أو ما يمكن أن يطلق عليها المجموعة الشرطية "أن القرآن تحدث فيها عن مظاهر القيامة؛ فكان أسلوب الشرط هو وسيلته المفضلة والأداة هي (إذا) المؤذنة بتحقيق جوابها؛ لأن الساعة آتية لا ريب فيها، ومظاهر القيامة موضع اهتمام فيها؛ لأنها صُدرت بها وعليها أدار الحديث"[١]، فجوهر مقاصد هذه السور مجتمعة هو الحديث عن مظاهر القيامة وأهوالها ومآل الناس إلى الحساب يوم القيامة، هذه المظاهر والأهوال قال عنها رسول الله _صلى الله عليه وسلم_: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ"[٢]، وقد ميز النبي- صلى الله عليه وسلم -هذه

---

[١] خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ١٩٩٢م، ١/٢١٤.

[٢] مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١ م، أخرجه الإمام أحمد ٨/٤٢٤، ٥٢٨، ١٠/٤٢، وسنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١٩٩٨م، أخرجه الترمذي ٥/٢٩٠ .

السور لأنها من السور القصار وفيها تركيز شديد على هذا الهول العظيم، ومن بين هذه السور سورتين هما محل دراستنا.

عني التعبير القرآني بإبراز مظاهر تصاعد الهول والفزع في هذه السور، ومن هذه المظاهر أن تلا الفعلَ في جميعها أداة الشرط إلا في سور التكوير والانفطار والانشقاق، فلهذه السور خصوصية عرض بؤرة الحدث لتلك الأهوال، والسور الثلاث متقاربة في ترتيبها لذا أضمر الفعل ثم صرح به؛ و"الشيء إذا أضمر ثم فسر كان أفخم مما إذا لم يتقدم إضماره ألا ترى أنك تجد اهتزازا –عند سماعه–... والفعل المفسر في تقدير المذكور مرتين، وكذا قوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)، (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)"[١].

وقد تتابعت جمل الشرط ليحمل كل فعل منها تفصيلا يخص حال كل ظاهرة على حدة، واتصال هذا الأسلوب يدعو إلى الانتباه واليقظة، فقد اتصلت الجمل في قوله سبحانه: (إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) (الانفطار: ١– ٤)، وهذه المظاهر توضح تنوع الأهوال وتفصِّل أحوالها، ثم ذكر مثل هذا في قوله تعالى: (إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّت) (الانشقاق: ١– ٥)، هذا التكرار للشرط في افتتاح السورتين كشف عن "ترابط الصور هنا في هذا السياق، وتتفاعل فيما بينها في رسم الحركة والهيئة المنقلبة... فبين هذه الصور الكونية المرعبة، ترابط وتواصل ضمن السياق للإيحاء بالأهوال والأحوال المخيفة، وهي بمنزلة

[١] البرهان في علوم القرآن ٣/٩٠.

الطوارق على الحس، لإيقاظه، وتهيئته لاستقبال الفكرة الدينية المطلوبة"[1]، فلكل قضية عظيمة مقدمات تصاغ على قدرها.

ولا شك أن البيان القرآني "إنما كررت (إذا) لتهويل ما في حيزها من الدواهي"[2]، ولو غاب التكرار لغابت الفائدة وبخاصة أن القضيتين المراد حجاج الإنسان فيهما هما الاغترار بكرم الله وحتمية اللقاء به سبحانه.

وللشرط أثر في نفس المتلقي يحدثه كما للقسم والاستفهام من وقع، فـ"كما يثير القسم الشوق والتطلع، كذلك يثيرهما في النفس الاستفهام والشرط، ففي الاستفهام تتجمع النفس لمعرفة الجواب، وفي الشرط تتطلع لمعرفة الجزاء"[3]، وقد حفلت سورة الانشقاق بالجمع بين الأساليب الثلاثة: الشرط والقسم والاستفهام للتأكيد على قضيتها ومقاصدها الجليلة الخطر، وفي الشرط تشوق النفس إلى الجزاء؛ لأنه أكثر إثارة وبخاصة أنّ ذكره أو حذفه يفرضه السياق اللغوي الداخلى للكلام وسياق الموقف والحال؛ لذلك تتجلى القيمة التعبيرية للأسلوب الشرطي في أنه "يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطاً ملاحَظاً فيه ترتب السبب على السبب، فإذا ذكِرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون، فإذا ذكِر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيَّما تمكن"[4].

---

[1] وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص٣٣٤.

٢ تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الأرمي العلوي، مراجعة: د.هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، ط١، ٢٠٠١ م، ٣١/١٩٤.

[3] من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البدوي، نهضه مصر، القاهرة، ط ٢٠٠٥م، ص ١٨٣.

[4] خصائص التعبير القرآني ١/ ٢٠٨.

واختيرت (إذا) من بين أدوات الشرط وهي كثيرة لبعد دلالي وتأثيري خاص؛ لأن "الأصل في (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه، كما تقول: (إذا زالت الشمس آتيك)، ولذلك كان الحكم النادر موقعا لـ (إن)؛ لأن النادر غير مقطوع به في غالب الأمر"[١]، ويقول الزمخشري في المفصل: "وفي (إذا) معنى المجازاة"[٢] وهو يناسب سياق القيامة فحديثها مقصور على مجازاة العباد عن أفعالهم، ومن ثَمَّ تصنيفهم بحسب إذعانهم لأوامر الله– تعالى–، وعلى جهة التحقق يتحقق الشرط بـ(إذا)؛ لأنها تأتي "لإفادة تقوية الحكم وهو التعليق الشرطي، أي أن هذا الشرط محقق الوقوع، زيادة على ما تقتضيه (إذا) في الشرطية من قصد الجزم بحصول الشرط بخلاف (إن)"[٣]، فناسب أن تتقدم على غيرها من الأدوات؛ لأن ورودها في الافتتاح يقوي حكم ما أخبرت عنه.

وعن جواب الشرط فلحذفه بلاغة ولذكره بلاغة أخرى، وهو موضع الاهتمام من المتلقي؛ لكونه أداة تناسق وتماسك لجملة وعاء الشرط حيث ينبني هذا الجزء على ما تقدم من جملة الشرط، ولذلك فإن حذفه يقع لدواع؛ منها كما في سورة الانشقاق "ليذهب المقدِّر كل مذهب، أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار"[٤]، فقال في الانفطار: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) (الانفطار: ٥)، وقال في التكوير: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (التكوير:١٤).

---

[١] الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ٢/ ١١٧

[٢] المفصل في صنعة الإعراب، جار الله أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص٢١٣.

[٣] التحرير والتنوير ٢١٨/٢٠.

[٤] الكشاف ٧٢٥/٤.

والحذف لا يكون إلا بدليل تقدرة ثقافة المتلقي واطلاعه ومعرفته بسياق المقال والمقام، ولا تغيب البنية اللغوية عن عين القارئ إلا إذا حملت له قيمة دلالية أكبر من ذكرها حيث لا يحيط الذكر في موضع الحذف بكل مراده، والهول في هذا الموضع مقصوده أعظم من أن يتخيل أو أن يسطر بالقلم، فحذف الجواب في سورة الانشقاق لما في مطلع الانشقاق من إجمال أحوال السماء والأرض، كما أن حذفه مستفاد مما تقدمه في سورة الانفطار من العلم والإدراك بحال نفسه.

وإنه لما ذكر في الانفطار جواب الشرط (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)، وذكر في التكوير قبلها (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) فهم السامع مما تقدم سريان الجواب على تلك الشاكلة؛ ولذا كان حذفه أولى ولو ذكر لأضاف جديدا؛ فالذكر مقرون بالجديد ولكان الذكر –إن وجد– مغايرا للجوابين السابقين ولكنه حذف الجواب؛ ليستنبط السامع جواب الشرط مما مر في سورتي التكوير والانفطار.

٢- التأثير النفسي للإخبار عن المستقبل بالماضي عند المتلقي

يتحد أسلوب السورتين في الافتتاح بالتعبير بالماضي مرادا به الاستقبال، وهو على خلاف قواعد النحو لكنه جاء على لغة العرب في اتساعها وبلاغتها حيث يكون الحكم للسياق؛ ولهذا الأسلوب أثره النفسي على المتلقي؛ من ذلك قول الطرماح[١]:

وإنّـي لآتِيكُمْ تَشَكُّرَ مَـا مَضَـى   مِنَ البرِ واسْتِيجَابَ مَا كَانَ فِي غَدِ

فاستعمل (ما كان) وهو يقصد (ما يكون) بدلالة كلمة (غد)، وهو أسلوب عرفته العرب في كلامها، ولذلك يقول أبوحيان: إن الفعل "يدل على الحدث بلفظه وعلى

[١] ديوان الطرماح، الحكم بن حكيم جحدر الطائي، تحقيق: د. عزةِ حسن، دار الشرق العربي، سوريا، ط١٩٩٤م، ص١٥٩.

الزمان بصيغته، أي كونه على شكل مخصوص، ولذلك تختلف الدلالة على الزمان باختلاف الصيغ، ولا تختلف الدلالة على الحدث باختلافها"[١]؛ لأنه مادة الفعل ثابتة غير متغيرة، وإنما يلحق الصِّيَغَ الاختلافُ.

وفي السورتين إخبار بالماضي على أمر مستقبلي ومقصود هذا "أنه كائن عنده لا محالة وواقع لا شك فيه، والفعل الماضي يأتي بلفظه ومعناه الاستقبال في ثلاثة مواضع: فيما أخبر الله عز و جل به، وفي الشرط، وفي الدعاء، فما أتاك في هذه الثلاثة بلفظ الماضي فمعناه الاستقبال ودليله واضح بين"[٢]، ويقول ابن الأثير عن فائدة التعبير بالماضي مع دلالته على الاستقبال "إن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجادهِ؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجدِ وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها"[٣] فله نجاعته وأثره في النفس لإثبات هذه القضايا التي لا جدال فيها ولا إنكار لحدوثها؛ وهذا الأسلوب يوهن كيد المتلقي ويفت في عضده ويحمله على القبول والخضوع أو الإعراض التام الواضح.

فقد توالت الأفعال الماضية الدالة على الاستقبال في الانفطار بحكم السياق؛ على نحو: (انفطرت- انتثرت- فجرت- بعثرت- علمت- قدمت- أخرت)، ويمكننا أن نقسم هذه الأفعال إلى قسمين: القسم الأول أفعال الأهوال (الفطر والانتثار والتفجر

[١] الاقتراح في أصول النحو، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. محمود فجال، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٩م.

[٢] الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٤٤٠هـ، ص ٣٦٤.

[٣] المثل السائر، لابن الأثير ١٥/٢.

والبعثرة)، والقسم الثاني جاء على نسق الأول وهو ما يترتب عليه، أي إذا حدث هذا ظهر (العلم والمقدم والمؤخر) من الأفعال والأقوال.

ويشعرك تناسق هذه الأفعال كأنها مرتبة ترتيبا من الأضعف إلى الأقوى، وكأنها تصف الأهوال من مبتدأ وقوعها وترصد تطور أحوالها، فإذا الفطر انفراج خفيف وهو أول الشق وبدايته، والانتثار تساقط شيء، فإذا ازداد التساقط تفجر الشيء تفجيرا وإذا تفجر تبعثر في كل الأنحاء، ورغم اختلاف الظواهر من سماء وكواكب ونجوم وبحار وقبور في أحوالها إلا أن الأفعال جاءت متناسقة وكأنها لظاهرة واحدة يزداد هولها طورا بعد طور.

وتتوالى الأفعال الماضية في الانشقاق على نحو: (انشقت- أذنت- حقت- مدت- ألقت- تخلت) وقد جاءت لتحكي حال السماء والأرض جميعا؛ فالسماء تنشق وتصغي لنداء ربها وحُق لها ذلك، والأرض تمد وتلقي ما في بطنها وتتخلى عما في داخلها من مخبوئها لتصغي لأمر ربها وحق لها ذلك.

يقابل هول الانشقاق للسماء ثلاث حالات للأرض حيث المد والإلقاء والتخلي عما في داخلها، وهنا تجري الأهوال متساوية متقاربة في تواز يناسب كل ظاهرة، ويشتركان معا في فعلين (أذنت- وحقت)، فطاعتهما واحدة وبمقدار واحد لا تتأخر إحداهما عن الأخرى ولا تتقدم.

٣-القيم الجمالية التأثيرية لأسلوب التضاد (لفظا وتركيبا)

تعتمد السورة على القيم الجمالية التأثيرية لأسلوب التضاد سواء بأسلوب المقابلة أو المطابقة؛ ففي المقابلة تسير طريقة ترتيب النظم بين السورتين نحو تقرير حالين متباينين للمؤمن والكافر، وتبين سورة الانفطار إجمالا حدود صلاح فريق وفساد آخر؛

في قوله: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)(الانفطار: ١٣-١٤)، فقابل بين الأبرار والفجار كما قابل بين منزلة كل فريق مستخدما تأكيد الخبر بمؤكدين مع حرف الجر (في) الذي يشير إلى الظرفية والانغماس في الشيء؛ فبينما الأبرار في نعيم، يقيم الفجار في جحيم؛ لتتفق الآيتان في النظم والوزن وتختلف في بيان مآل كل فريق.

وفي الانشقاق يركز على الموقف الذي أفضى بهما إلى هذه الحال مع تباين النتيجة المرجوة وهي (السرور)، فبينما صاحب اليمين في سعادة مستقبلية قادمة في الآخرة، كانت سعادة الآخر ماضوية منقضية في الدنيا؛ فقال: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا۝ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا۝ وَيَصْلَى سَعِيرًا۝ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا۝ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ۝ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) (الانشقاق: ٧- ١٥)، وفي الموضعين مقابلة توضح حال الفريقين، فبين السرور في حياة قصيرة وبين السرور في حياة أبدية مقابلة تبين معاناة الإنسان وشقائه أو فرحه وسعادته، وفي السورتين قبض في موضع الحديث عن الأبرار/ أصحاب اليمين مع بسط لحال الفجار/ أصحاب الشمال مراده بيان حال المكذبين وما صاروا إليه بعد تكذيبهم للبينات الواضحة.

كما اتسمت المقابلة بعمق المعنى مع إيجازه وهو ما يعرف عند السيوطي بالحذف احتباكا وسماه الزركشي بالحذف التقابلي "وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحدف من واحد منهما مقابلة لدلالة الاخر عليه"[١]، فبحال الفريق الأول يعرف حال الثاني وبحال الثاني يعرف حال الأول، من خلال استدعاء المعاني المتقابلة بين الفريقين:

[١] البرهان، للزركشي ٣/ ١٢٩.

فالأول: يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا- والثاني: يحاسب حسابا عسيرا وينقلب إلى أهله مغموما حزينا.

وكذلك الثاني: يَدْعُو ثُبُورًا- وَيَصْلَى سَعِيرًا- كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا- ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ- أما الأول: يَدْعُو نجاةً- وينعم في نعيم- إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ كادحا محتسبا- ظَنَّ أَنْ يَحُور ويرجع إلى ربه.

ومن القيم الجمالية التأثيرية أيضا لأسلوب التضاد آلية المطابقة، ولا تخلو السورتين من قيمتها التعبيرية المهمة، كما لا يخلو نص من النصوص من هذا الفن؛ ذلك أن طريقته فريدة في بيان حالة التناقض والاختلاف الذي يكشف عن بعد دلالي لا تستطيعه أدق الأساليب الجمالية التعبيرية، فهو مؤشر أسلوبي على وجود التنافر بين أمرين يكشفهما سياق النص ومقاصده، وبالرغم من أن سمة الطباق التركيز على اللفظ المفرد في مقابل آخر إلا أنه من القيم الجمالية المعنوية التي تعتمد على استحضار مدلول كل لفظ ليقابل مدلول الآخر.

وفيما يبدو أن لفظتي السماء والأرض هما المناسبتان لأهوال القيامة لعظمهما أو لأنهما موضع حياة الإنسان ومناط اهتمامه وعنايته، وهما أكبر خلقا منه؛ فجاء في سورة الانفطار بالسماء والكواكب في مقابل الأرض التي لم يظهر لفظها صراحة لاستبدالها بمواقع منها سيصيبها الهول العظيم؛ هي البحار والقبور، فجاء على طريقة الطباق الخفي الذي يدعو إلى التدبر والفهم، وفي الانشقاق طابق بين السماء والأرض صراحة دون ذكر شيء مما يندرج تحتهما، لأن الأسلوب سيق لبيان ما يعتري سطح كل منهما من أهوال؛ فالانشقاق للسماء والمد والبسط وإخراج ما فيها للأرض، ففي السورتين طباق بين ظاهرتين عظيمتين هما السماء والأرض، وأبان تكرار الطباق في

السورتين عن وحدة نسقهما في بيان ما يعتريهما من تحولات؛ فناسب التحول الكوني تحول النظم في هاتين الظاهرتين.

٤-من آليات التقارب في النظم: ظاهرة مراعاة النظير

من بين الأساليب البلاغية البارزة في سورتي الدراسة ظاهرة مراعاة النظير ولها صور شتى؛ فتارة يكون بين النظائر من الظواهر الكونية، وتارة تقع بين الصيغ، وتارة أخرى تتجلى في الناحية الصوتية كالفواصل، وهي ظاهرة يتلقاها المستمع بالقبول والرضا ويبحث وراء سر اجتماع هذه النظائر، وعلى حد قول السكاكي إن "مراعاة النظير، هي عبارة عن الجمع بين المتشابهات"[١].

ففي مطلع سورة الانفطار تتوالى النظائر التي ستتأثر بأهوال القيامة وهي مواضع اختيرت مناسبة للهلاك والدمار الذي سيحل بالكون، فلم يخل الابتداء من اللفت والتركيز على أهوال تحل بالسماء وما فيها والأرض وما فيها (السماء والكواكب من جهة والبحار والقبور من جهة)، كما يجري التناسق ومراعاة النظائر في المقطع حيث يتكون من كلمتين مع تكرار إذا الشرطية وكأن كل شرط له جواب، ومثل الانفطار تسير الانشقاق على خطاها لكن بإظهار لفظ (الأرض)، مع مراعاة تكرار تركيب (وأذنت لربها وحقت) مع الظاهرتين ليبين طاعتهما وامتثالهما لأوامر الله تعالى.

من مظاهر مراعاة النظائر في السورتين تكرار الفعل الماضي الدال على الاستقبال في كلمات: (انفطرت، انتثرت، فجِّرت، بعثرت)، هذه المفردات لها علاقات تربط بينها وتشير إلى مرحلة ما من الهول تقارب أختها بما يناسب فعل الانفطار، وقد ختمت الآيات بها؛ لأن "كل آية من هذا القبيل تنتهي بكلام ذي علاقة عضوية بما

[١] مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٨٧م، ص ٤٢٤.

سبق، فهي مفتقرة إليه لشدة الارتباط بينه وبين بقية أجزائها"[1]، ثم تزداد النظائر ظهورا في انتهاء كل كلمة منها بالتاء، ودلالة التاء تختلف عندما تلحق أول الفعل أو آخره، فإذا لحقت أوله كانت للمستقبل وإذا لحقت آخره كانت للماضي، ولكنها هنا تخالف هذا الوجه المعروف عند النحاة فتلحق آخر الفعل ولا تدل على زمن صرفي ماض بل تكون ملازمة للاستقبال، وهذا الأمر من الوجهة البلاغية له دلالته المؤكدة لتحقق وقوع تلك الأحداث المذكورة بلا شك، بالإضافة إلى تكرار حرف الروي التاء وهو حرف أسناني لثوي مهموس مرقق انفجاري يناسب مقام الانفجار الكوني، وعلى حد قول د.إبراهيم أنيس عن التاء، "إنه صوت جلد قوي لا يتغير بتغير أحوال ما قبله"[2]، فاختياره مع دلالة السكون إشارة إلى انقضاء الأمر، وحمل الحرف دلالة الانفجار صوتا ليناسب الانفجار الكوني.

وفي سورة الانشقاق تتجلى النظائر في اختيار أفعال على شاكلة ما تقدم في سورة الانفطار، وهي: (انشقت، أذنت، حقت، مدت، ألقت، تخلت)، وفي نهاية السورة يكشف عن صورة أخرى من صور مراعاة النظائر حيث يقسم الله تعالى بثلاث ظواهر كونية هي الشفق والليل والقمر؛ في قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) (الانشقاق: ١٦-١٨)، وهي ظواهر عظيمة تخضع لأوامر الله كما تبين في أول السورة من قبل خضوع السماء والأرض، ولاستدعاء هذه الظواهر دعوة إلى الخضوع له- تعالى-؛ لقدرته البالغة على تقدير خلفة الليل للنهار وفي هذا تعريض على إثبات قدرته- سبحانه- على البعث والنشور.

---

[1] البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة, ط٢، ٢٠٠٠م، ص١٩٦.

[2] الأصوات اللغوية، د.إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٢٤.

وقد "أقسم تعالى بمخلوقاته تشريفا لها وتعريضا للاعتبار بها"[١]، ولما كانت هذه الثلاث من الظواهر المتصلة بالليل ناسب القسم بها؛ فالشفق أول الليل ثم جاء بذكر الليل نفسه ثم ذكر ما يناسب الليل وهو القمر، لأن ضوءه يكشف ظلمة الليل واختيار هذه الثلاث لداع بلاغي يناسب سياق السورة التي يخلط فيها الإنسان بين الحق/النور، والباطل/ الليل ويود المنكر لو ذهب ضوء النهار وبقيت ظلمة الضلال وأهواء الإنسان المغرور المنكر؛ فيأتي القمر ليضيء هذا الظلام المادي لليل كما تكشف البراهين ظلمة الكذب والبهتان، وتتفق الآيات الثلاث في انتهاء الفاصلة بالقاف وهو صوت انفجاري يناسب تغليظ القسم الذي تقدمه النفي زيادة في التأكيد.

٥- القيم الجمالية التأثيرية لأسلوب التوكيد في السورتين

أسلوب التوكيد من الأساليب المناسبة لحجاج المستمع المراوغ الذي وصفته السورتين بتكذيب الرسل وادعاء صواب معتقده، وقد تنوعت طرق التوكيد في سورتي الدراسة، فتألفت السورتان من عدد من التراكيب المؤكدة؛ منها:

- **التوكيد بإنّ**

توكيد الخطاب بـ(إنَّ) يلجأ إليه المتكلم إذا كان هو نفسه في حاجة إلى تأكيد كلامه، أو كانت الرسالة نفسها تحتاج إلى التقوية والتمكين، أو كانت حال المتلقي هي التي تأبى قبول النص سواء كان مترددا يحتاج إلى تثبيت أو منكرا يحتاج إلى إقناع ليعدل عن إنكاره.

وفي سورة الانفطار تأكيد من الضرب الثالث كما ذكر البلاغيون، فظاهر التركيب خطاب المنكر الشاك لذا يظهر في الأسلوب ذكر (إن مع اللام المؤكدة)؛ كما

[١] البحر المحيط ٤٣٨/١٠

في قوله تعالى في الانفطار: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) (الانفطار:١٠) حيث يؤكد البيان القرآني للمنكر الشاك في الحساب والبعث أن كل ما يلفظ به مسجل عليه في كتاب يقوم عليه ملائكة كرام يكتبون أعمال العباد، وأتي بالأسلوب على تشديد التوكيد؛ لأنها "مفيدة لبطلان تكذيبهم وتحقيق ما يكذِّبون به من الجزاء على الوجهين في الدين؛ أي: تكذبون بالجزاء، والحال أن عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم"[١]، فكان التأكيد بهذا الأسلوب هنا لاستبعاد أن يكون مع هذا الحفظ لأعمالهم تكذيب أو إنكار.

ويسير أسلوب توكيد الخبر بمؤكدين بعد تأكيد الكتابة والتسجيل عليهم؛ فجاء بالأسلوب نفسه في قوله سبحانه: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) (الانفطار:١٣-١٤) ليتصل بالموضع السابق؛ لذلك جيء به كأنه "استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتب من الثواب والعقاب"[٢]، حيث إن نتيجة تسجيل الأعمال أن يجزى بها، فبين ذلك مؤكدا انغماس كل فريق فيما قدم له.

وفي سورة الانشقاق تأكيد بـ(إنَّ) أيضا؛ في قوله تعالى: (إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (الانشقاق:٦) وتأكيد الخبر للمتلقي هنا أكثر من تأكيد الخبر ذاته؛ فالمتلقي يعرف كدحه وكدّه في الحياة ولكنه ينكر البعث فيظن أنه يفعل ذلك ولكنه لن يقدم على الحساب؛ وورد التأكيد هنا؛ لأنه "لما كان أكثر الناس منكراً للبعث أكد"[٣]، فالتأكيد واجب للغافل والمُصرِّ على العصيان حتى يتذكر أو تقام الحجة عليه، وبخاصة أن قول الكافرين دائما يتجه إلى إنكار وجود البعث والحساب؛ قال تعالى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ

[١] روح المعاني ٢٧٠/١٥.

[٢] السابق، ٢٧٠/١٥.

[٣] نظم الدرر للبقاعي، ٣٣٨/٢١.

إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (الجاثية:٢٤) والظن مكرر في الموضعين؛ فالمنكر يظن عدم الرجوع وهذا ينافي ما جاءت به البراهين والأدلة، وفي صياغة الخبر رائحة الشرط فهنا جملتان تترتبان على بعضهما؛ فالكادح ملاق ربه أحسن أو أساء، وهو ما جعل الخبر يحمل في طياته مقام الإقناع بالدليل وفيه رد على إنكار البعث الواضح من جانب المكذبين.

وقد تكرر التوكيد ثلاث مرات في الإخبار عن الكافرين (أصحاب الشمال) في قوله تعالى: (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا۝ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ۝ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) (الانشقاق:١٣-١٥)

والأخبار المؤكدة شارحة لأحوال المتكلم عنه وهو الكافر، وكلها تعبيرات تدل على سوء اختياره وسوء تدبيره في إنكار البعث فسروره في الدنيا إنكار للبعث، وتأكيده على عدم الرجوع بعد الموت إنكار آخر، فجاء بالتأكيد في الثالثة على سوء تقديره وبطلان ادعائه؛ لهذا كانت جملة: (إن ربه كان به بصيرا) فيها دفع لإنكاره البعث وتثبيت لما أخبر الله به، وجاء "تأكيد ذلك بحرف (إن) لرده إنكاره البعث الذي أخبر الله به على لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم– فآل المعنى الحاصل من حرف الإبطال ومن حرف التأكيد إلى معنى: أن ربه بصير به وأما هو فغير بصير بحاله"[١]، كما ناسب تأكيد سروره في أهله واستقوائه بهم ويقينه بعدم الرجوع والبعث بعد الموت، أن يؤكد خبر الرجوع واطلاع الله تعالى عليه وعلمه بحاله.

- **التوكيد بالتكرار الصوتي لفظا أو تركيبا بين السورتين**

تبدو قيمة التكرار من متطلبات العملية الإقناعية وبخاصة عند التأكيد على مفردة أو تركيب، وهو ما يدعو المتلقي إلى البحث وراء هذه المؤشر الأسلوبي الذي يحمل قيمة تأثيرية لها علاقة قوية بمقاصد النص؛ لأنها جزء مهم من رسالته

---

[١] التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٢٥.

الإقناعية، ففي سورة الانفطار يمكننا إدراك تنوع هذا التكرار؛ فقد كرر لفظ يوم بالإضافة ودونها، وكرر تركيب (يوم الدين) عدة مرات، كما كرر أسلوب الاستفهام أيضا تعظيما لهذا اليوم.

وبيان ذلك أن النظم القرآني كرر (يوم الدين) ثلاث مرات، في قوله تعالى: (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (الانفطار:١٥-١٩) و(يوم الدين) هو يوم الجزاء، وهذا التركيب تكرر في القرآن الكريم عامة ثلاث عشرة مرة، وجاء ذكر هذا اليوم في سياق التعظيم بأسلوب الاستفهام المكرر أيضا؛ في قوله: (وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين).

ولو أفردنا كلمة (يوم) لوجدناها واردة أربع مرات في السورة؛ لجذب انتباه السامع إلى هذا اليوم كزمن معلوم تجتمع فيه الخصوم؛ وعلى الرغم من أنَّ "تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك"،[١] وكان قد ذكر يوم الدين أولا ثم عاد إليه مرة أخرى في أسلوب استفهامي تجهيلا لحال الإنسان وتهويلا لهذا اليوم الذي يجهل مقدار هوله، وقد بينت سور أخرى هول هذا اليوم؛ فقال في سورة الحج: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) (الحج: ١-٢)، وما كان تأكيد حقيقة هذا اليوم وتكراره إلا لأنه- سبحانه- قد علم اغترار هذا الإنسان بكرمه، وسمِّي يوم القيامة بيوم الدين؛ لأنه اليوم الذي يرتفع فيه شأن الدين، فيتحقق وعد الله تعالى بإظهاره على غيره من الإفك والكذب والشرك،

---

[١] **الكشاف ٣/٤٤٦.**

ولفظ الدين في القرآن مشترك بين الملة والعقيدة الحقَّة وبين القيامة، وإذا أراد الملة ذكره دون إضافة لفظ اليوم أما إذا أراد القيامة ذكره بالإضافة.

وفي الانشقاق كرر تركيب بين من خلاله امتثال السماء والأرض لأمر الله؛ فقال: (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) (الانشقاق:٢-٥)، فكرر التركيب بعد ذكر السماء ثم كرره بعد ذكر الأرض لبيان استجابة كل منهما لأمره- تعالى- كاستجابة الأخرى، أو لأن كل واحدة تستجيب على قدر عظمها وبمن فيها من المخلوقات التي تسكنها، وقدم السماء على الأرض لأنها أعظم خلقا، وهذا الامتثال كان تأكيدا للامتثال الأول الذي صدعتا فيه لأمره عند خلقهما؛ في قوله: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (فصلت:١١)، وقيل في هذه الاستجابة إنها من قبيل الاستعارة، ولو طرحنا هذا جانبا ونظرنا إلى كل خلقه على أنهم أمم أمثالنا لتبين أنهما إنما تستجيبان كاستجابة العقلاء.

- **التوكيد بالزيادة**

زيادة الكلمة في سياق النص وبخاصة القرآني ليست زيادة تدعو إلى حذفها، بل إن الزيادة تؤكد على عدم استغناء المقام عن دورها لأنها مقصودة ولو حذفت لاختل المعنى ولم يؤد دوره المسوق له، من ذلك قوله تعالى في نهاية الانفطار: (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (الانفطار: ١٩)، فقد أعطت زيادة التوكيد بالظرف تحديد مكان هذه الأهوال وزمانها في لفظ واحد، ولو حذف الظرف لكان المعنى واضحا ولكنه يقصر عن المراد، لذا "جاء الظرف هنا لزيادة تأكيد؛ لأنه قد يكون في الدنيا

لبعض الناس بعض الأوامر"[1]، وتوسطه جاء على سبيل الاعتراض الذي هو لون من ألوان الإطناب في الكلام لبيان اختصاص الله تعالى بالملك دون غيره في هذا اليوم.

المطلب السابع: تقارب نسق الفواصل بين السورتين

يتقارب نسق الفاصلة في السورتين، فلا يبتعد روي السورتين كثيرا عن روي الأخري بل يتكرر ليؤكد تقارب النظم في السورتين الكريمتين، وذلك لتقارب مقاصدهما وتعرضهما لأحوال واحدة، و"الفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد؛ شحنة من الواقع الموسيقي، وشحنة من المعنى المتمم للآية"[2]، هذا التكامل بين الترنم والغاية السياقية والمقامية يجعل نسق آي القرآن متفردا غاية التفرد، فالعدول عن نسق معين من الفواصل يكون وراءه سر خفي يكشف عنه معرفة أحوال النظم وسياق التركيب والمقصد العام للسورة، وذلك لأن "إيقاع المناسبة فى مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جدا ومؤثر فى اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيرا عظيما"[3]، ولا يخلو نسق الفاصلة من بغية التأثير في المستمع إمتاعا وإقناعا.

ويجب أن يكون ثمة علاقة بين الآية وما بعدها وهو ما يؤكد الترابط ويكشف الانسجام، لكن لكل آية خصوصية وطاقات تعبيرية خاصة بها؛ لذا وجب تدبرها منفردة عن طريق علاقة فاصلتها بأولها ثم تدبرها مع ما بعدها، وقد نقل السيوطي كلام الداني في تعريف الفاصلة بأنها "الكلام المنفصل عما بعده"[4]، هذا الفصل لا يعني التباعد بل

[1] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط ١٩٩٥م، ٨/٤٥٢.

[2] التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيروت، ط٤، ١٩٨٠م، ص٢٠٣.

[3] البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١/٦٠.

[4] الإتقان ٣/ ٣٣٢.

يعني إتاحة الفرصة للآية في التعبير عن بلاغتها حتى إذا ضمت إلى أختها كانتا معا في غاية البلاغة؛ لأن قوة المجموع بقوة أفراده منفردين ومجتمعين.

أولا: تقارب نسق الروي والفواصل في السورتين

تتقارب أصوات حروف الروي في السورتين، فتتفق السورتان في أربعة أحرف؛ هي التاء والنون والميم والهاء، وتتقارب في مخرج حرفي الكاف الوارد في الانفطار، والقاف الوارد في الانشقاق، وتتفرد الانشقاق بورود حرف الراء بها دون الأخرى، ويبين الجدول التالي روي السورتين وعدد مرات ذكره في كل سورة.

السورة/الروي	الانفطار (١٩ آية)	الانشقاق (٢٤ آية)
روي التاء	٥ مرّات	٥ مرّات
روي النون	٨ مرّات (٤+٤)[١].	٤ مرّات
روي الميم	٣ مرّات (١+٢).	مرّة واحدة.
روي الكاف	مرّتان	–
روي القاف	–	٤ مرّات
روي الهاء	مرّة واحدة	٣ مرّات (٢+١).
روي الراء	–	٧ مرّات (٢+ ٥)

[١] يرمز هذا الشكل ما بين القوسين (٤+٤) إلى ورود أربع فواصل متباعدة عن الأربعة الأخرى، ومثله بقية المواضع.

- **سمات فواصل سورة الانفطارمع الروي.**

جاءت ألفاظ الفاصلة المنتهية بالتاء الساكنة في مفتتح السورة؛ لتنقل الحال من السكون إلى الانفجار؛ نحو قوله: (انْفَطَرَتْ- انْتَثَرَتْ- فُجِّرَتْ- بُعْثِرَتْ- وَأَخَّرَتْ)، وهي على صيغة الماضي مرادا به الاستقبال وتكرارها في الفاصلة يفيد جذب انتباه السامع إلى الأهوال الواقعة المتناسبة التي يوافق بعضها بعضا في مواضع متباينة من الكون؛ لذا جاءت الفواصل متوازنة في الاسلوب وعدد كلمات التركيب، ومتفقة في الوزن والروي بين (انفطرت وانتثرت) وبين (فجرت وبعثرت) كما اتفقت كلمة (أخِّرت) في طرف الفاصلة مع ما قبلها في الفاصلة السابقة، وختمت بالتاء الانفجارية المهموسة المسبوقة براء مجهورة؛ مع تحول الهمس في التاء إلى جهر عند تسكين حرف الروي، ففيها "يقف الهواء وقوفا تاما حال النطق عند نقطة التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة، ويضغط الهواء مدة من الزمن، ثم ينفصل اللسان فجأة تاركا نقطة الالتقاء فيحدث صوت انفجاري"[1]، واجتماع الجهر بالهمس يحدث ضغطا آخر نظرا "لتباعد الأصوات إذ كان الصوت مع نقيضه أظهر منه مع قرينه ولَصِيقه"[2]، وليناسب التحول الأخروي والانفجار الكوني مع شيوع الخوف والانكسار والتذلل لجلال هذا اليوم، وكان لأسلوب الشرط أثره الواضح في وحدة فواصل هذا المقطع.

كما انتهت ثماني ألفاظ من الفاصلة بالنون (بِالدِّينِ- لَحَافِظِينَ- كَاتِبِينَ- تَفْعَلُونَ- الدِّينِ- بِغَائِبِينَ- الدِّينِ- الدِّينِ) وهو حرف لثوي يسبقه مد بالواو أو الياء للترنم؛ يقول ابن جني: "وكُلَّما جاور حرفُ المدّ الَروِى كان آنس به وأشدّ إنعاما

---

[1] **علم الأصوات، د. كمال بشر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٤٩.**

[2] **الخصائص، ٢/٢٢٧.**

لمستمعِه"[١]، ووردت سبع منها بالنون المسبوقة بالياء فيما انفردت فاصلة واحدة بالنون المسبوقة بالواو لتناسب سياق آيتها؛ قال تعالى: (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (الانفطار:١٢)، فوصف الملائكة هنا بالفعلية (يعلمون) بعد وصفهم بالاسمية لتجدد علمهم بأفعال العباد، فناسب أن يأتي الفعل مضارعا ليناسب تجدد ما يصدر منهم من عمل.

كما توالت ألفاظ الفاصلة المنتهية بالميم ثلاث مرات: (الْكَرِيمِ- نَعِيمٍ- جَحِيمٍ)، التي حملت شحنات من التوبيخ للإنسان الذي اغتر بحلم الله تعالى الكريم، وفُصل بين روي الميم برويين هما الكاف والنون ليعود إلى روي الميم مرة أخرى؛ حيث أعقبها بما يناسب بشارة الإنسان المطيع وإنذار العاصي، فذكر النعيم والجحيم في نهاية الفاصلة، وهذه الفاصلة تحمل ترصيعا غاية في البلاغة فلم يكتف الوزن بكلمة الفاصلة بل تعداها إلى توازن الآيتين تعريضا بميزان العدالة التي تحاسب كل فريق وتجزيه بما يستحق؛ فقال: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) (الانفطار:١٣- ١٤)، وألفاظ (الكريم والنعيم والجحيم) بها ملمحان هما الاسمية وسبق ياء المد للروي؛ والاسمية لثبوت تلك الصفات وديمومتها، والمد لطول المكث فيها بلا حدود أو أجل مسمى؛ وذلك لأن "حرف اللين لا يكون للإلحاق إنما جيء به لمعنىً وهو امتداد الصوت به"[٢]، وهو أمر يناسب طول فترة الإنعام أو العقاب.

بينما ختمت فاصلتان بألفاظ انتهت بالكاف في (فَعَدَلَكَ- رَكَّبَكَ)، وفيها خطاب للإنسان الذي اغتر بكرم ربه فيذكره –هنا- بمراحل استوائه وتسويته، وشاع حرف الكاف في الآيتين فذكر في نهاية أربع كلمات متتاليات؛ هي (خلقك- فسواك- فعدلك- ركبك) تنتهي بكاف الخطاب؛ منها ثنتان اختارهما لنهاية الفاصلة هما العدل والتركيب؛

[١] السابق، ١/٢٣٤.

[٢] السابق ١/ ٢٣٢.

لأنهما مناط الفخر والكبر عند الإنسان وليس له من أمرهما شيء؛ لذا ختم الفاصلة بالكاف لإرادة التقريع، وصوت الكاف صوت شديد انفجاري يناسب غرض خطاب التوبيخ.

فيما انتهت السورة بلفظ الجلالة- جل في علاه-فقال: (لِلَّهِ)، وهي فاصلة منفردة لم تشبهها فواصل أخرى في السورة، وسوف نعرض لسره البلاغي عند دراسة الفواصل المنفردة.

- **سمات فواصل سورة الانشقاق مع الروي**

افتتحت سورة الانشقاق بنفس أسلوب افتتاح سورة الانفطار والتزمت فاصلتها في الآيات الخمس الأولى مثل ما التزمت سورة الانفطار في الروي نفسه بتكرار حرف التاء الساكن، لكنها خالفت الانفطار في الحرف السابق لحرف الروي فقد تنوع بين القاف والدال واللام: (انْشَقَّتْ- وَحُقَّتْ- مُدَّتْ- وَتَخَلَّتْ- وَحُقَّتْ)، كما أنها التزمت بناء الفعل لما لم يسم فاعله كأختها، وانتهاء فاصلتها أيضا بالفعل الماضي الذي يحمل دلالة الاستقبال، فدل ذلك على مناسبة حرف التاء لهذا التحول الكوني وما يؤديه من دلالة مقصودة.

وكرر فاصلة الهاء في ثلاثة مواضع: (فَمُلَاقِيهِ- بِيَمِينِهِ- ظَهْرِهِ)، وهذه الفواصل وردت متباعدة مؤثرة في مواضعها تحمل دلالتها بلوغ الحساب نظرا لانتهائها جميعا بالهاء المكسورة، واختصت كل من الفاصلتين (بِيَمِينِهِ- ظَهْرِهِ) بالفصل بين أصناف المحاسبين وأحوالهم، كما بين ورود صوت الهاء بين فواصل الراء انتقالا من الهمس في الهاء إلى الجهر في الراء والعودة مرة أخرى، وهو ما يمكن وصفه بالعدول الداخلي لمناسبة رءوس المقاطع المتقابلة.

كما شاع حرف الراء في سبع فواصل: (يَسِيرًا- مَسْرُورًا- ثُبُورًا- سَعِيرًا- مَسْرُورًا- يَحُورَ- بَصِيرًا) وهو حرف مجهور مكرر مفخم يناسب سياق التذكير والمقابلة بين الحالين مع شيوع حرف السين المهموس الذي يوحى السكينة، وتوسط الفعل المنفي (يحور) سياق جرس التنوين الصاعد من تكرار صوت الراء المنون، لتتقلنا الفاصلة إلى الفعل المضارع الذي يكشف جدال الإنسان المتجدد في العودة والرجوع.

وتكررت فواصل انتهت بروي القاف هي: (بِالشَّفَقِ- وَسَقَ- اتَّسَقَ- طَبَقٍ) وناسب الاتيان بحرف القاف المجهور الشديد سياق القسم وفعله الظاهر (اقسم) الذي جاء منفيا زيادة في التأكيد مع جواب الشرط المؤكد باللام، فاتضحت حاجة المقام إلى حرف من حروف الاستعلاء والقلقلة، مع التجنيس الحادث بين (وسق) و(اتسق) وأصلهما الجمع؛ ليقرع سمع المعرضين عن المنهج القويم والبينات الواضحة، وليتآخى هذا الحرف مع حرف الكاف في سورة الانفطار الذي تكرر في نهاية أربع كلمات أيضا، وهما من مخرج واحد ليؤكد وحدة النسق وتقاربه لتقارب المقصد في السورتين.

ووردت أربع فواصل بالفعل المضارع المنتهي بالنون وهي: (لَا يُؤْمِنُونَ- لَا يَسْجُدُونَ- يُكَذِّبُونَ- يُوعُونَ) وكلها أفعال مضارعة تصف حال المكذبين بالبعث، منها فاصلتان بالنفي (لَا يُؤْمِنُونَ- لَا يَسْجُدُونَ) ونفي الإيمان يؤكد نفي السجود لأنه مترتب عليه، ووردت فاصلتان بالإثبات هما(يُكَذِّبُونَ- يُوعُونَ) ليؤكد النظم القرآني على ضلال سعيهم؛ فحالهم أنهم يكذبون ويوعون، وكذبهم متجدد لصد الدعوة وجمعهم متجدد لإسقاط الدين، وناسب الروي تخُّير النون المسبوقة بالمد (الواو) الذي يشير مدُّ الصوت فيه إلى مد طغيانهم وغيهم وضلالهم.

وانفردت الفاصلة الأخيرة في ختام السورة بحرف الميم: (أَلِيمٍ)، وهي فاصلة منفردة لم تشبهها فواصل أخرى في السورة، وسوف نعرض لسرها البلاغي عند دراسة الفواصل المنفردة.

من خلال عرض هذا التنوع في فواصل السورتين يتضح أنه لم تأت سورتا الانفطار والانشقاق على روي واحد كما اتسمت به بعض السور المكية وقصار السور بل تنوعت فواصلها، وهو ما يزيدهما حسنا؛ يقول رشيد رضا: "إنك ترى السور ذات النظم الخاص والفواصل المقفاة تأتي في بعضها فواصل غير مقفاة، فتزيدها حسنا وجمالا وتأثيرا في القلب، وتأتي في بعض آخر آيات مخالفة لسائر آيها في فواصلها وزنا وقافية، فترفع قدرها وتكسوها جلالة وتكسبها روعة وعظمة، وتجدد من نشاط القارئ وترهف من سمع المستمع"[1]، وسبب هذا ارتباط الفاصلة بالمعنى وسياق السورتين ارتباطا وثيقا.

ثانيا: الفواصل المنفردة في السورتين

انفردت كل سورة بفاصلة مغايرة عن نظام الفواصل داخلها، فجاء حرف الهاء منفردا في سورة الانفطار، بينما انفرد حرف الميم بفاصلة واحدة في سورة الانشقاق، والفاصلة المنفردة هي التي انفردت عن نظام الفواصل الأخرى فلم تتكرر كما تكرر غيرها من الفواصل؛ وهذا التعريف الذي أميل إليه مخالفا لتعريف د. حسن سليم الذي قال فيه إن الفاصلة المنفردة "التي لم تتماثل حروف رويها ولم تتقارب، وانفردت عما

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، ١/١٦٧.

قبلها وما بعدها في إيقاع فواصل السورة الواحدة"[١]، وهو إن كان يصلح تعريف الفاصلة المنفردة بأنها التي لم تتقارب في السور الكبيرة فلا يصلح هذا مع قصار السور، ذلك لأن الانفراد فيها خاص بحرف واحد قد يتقارب مع غيره في الصوت؛ كصوتي الميم والنون، ولكن اختصاصه وانفراده في هذا الموضع يعطيه أولوية الانفراد لا أولوية التقارب.

ففي الانفطار تكرر حرف النون ثماني مرات وهو الأكثر عددا، كما تكرر الكاف مرتين وهو الأقل عددا، وانفرد الميم بالذكر مرة واحدة، وفي الانشقاق كثر انتهاء فواصل السورة بالراء؛ فجاء في سبع مواضع من الفاصلة وهو الأكثر ورودا، كما تكرر الهاء ثلاث مرات وهو الأقل عددا، وانفرد صوت الميم بالذكر مرة واحدة، وهو ما يدعونا إلى البحث عن السر البلاغي وراء هذا الانفراد، والملاحظ أن الحرفين المنفردين في روي الفاصلتين وردا في نهاية السورتين؛ أي: في الخاتمة وهو أمر يدعو إلى بيان علة ذلك.

وقد برزت فاصلة مغايرة لنظام الفواصل المتبع في السورة في ختام الانفطار؛ إيذانا بانتهاء الموعظة وانقضاء الحجة؛ قال تعالى: (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (الانفطار:١٩) وهي فاصلة الهاء المسبوقة بالمد في ختام السورة، ولهذه الحالة خصوصية "وذلك أنك لمّا أردت تمكين الصوت وتوفيته ليمتد ويقوى في السمع وكان الوقف يضعف الحرف ألحقت الهاء ليقع الحرف قبلها حشوا فيبين ولا يخفى"[٢]، وليشير موقعه إلى انتهاء الجدال والحوار مع منكري البعث، وصوت الهاء

---

[١] من أسرار الفاصلة المنفردة في السور المكية سور النصف الأول من القرآن، د.حسن عبد الرحمن سليم، المؤتمر العلمي الدولي الخامس، آفاف الإعجاز في القرآن الكريم جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالزقازيق، إبريل ٢٠١٧م، مجلد ٣، ص١٨٧٩.

[٢] الخصائص ٢/ ٣٢٨

الذي سبق بفسحة من الهواء أطبق مرة واحدة؛ ليحكم غلق القضية وتسليم أمر الآخرة إلى الله تعالى، وقد ناسب هذا الصوت في الفاصلة ذكر لفظ الجلالة الذي جاء في ختامها ليؤكد على قَصر أمر الآخرة عليه- سبحانه- دون شريك بالإضافة إلى سبق لام الجر التي تفيد الملكية للفظ الجلالة؛ فهو سبحانه مالك يوم الدين، ولم يرد لفظ الجلالة في القرآن كله في نهاية الفاصلة إلا في هذا الموضع وهذه السورة.

وفي الانشقاق ختمت السورة بفاصلة منفردة بروي الميم المسبوق بياء المد، فيما انفردت الفاصلة التي قبلها بحرف الروي النون مسبوقا بالواو، فجعل صوت الخاتمة منفردا غاية الانفراد، فعلى الرغم من التقارب بين صوت النون والميم إلا أن ما سبقهما من مد قد أسهم في التباعد لتنفرد فاصلة النهاية بالميم؛ وهي –هنا- "التي تقطع وحدة الإيقاع بمخالفة وزنها ورويها أو رويها لما قبلها، فتأتي هي أو ما بعدها على غير ما تتوقعه الأذن، وتحدث ما يشبه الصدمة على حد تعبير المحدثين"[1]، قال تعالى: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ۝ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (٢٣- ٢٤) وناسب صوت الميم الشفهي- بإطباق الشفتين حيث لا مخرج للهواء- سياق الموعظة والحجاج بتقديم الأدلة على صدق الحساب والجزاء قبل ذلك، كما تأتي السورة ببراهينها تالية لسورة الانفطار التي عرضت هذه الأهوال ومآل كل فريق لتكون الانشقاق هنا كالمكررة والمذكّرة لمن بقي من السامعين، لذا جاء حرف الميم مع ياء المد ليحكم إغلاق المراء في هذه القضية؛ فمن استمع إلى الموعظة والتذكير بعدما تقدم فقد نجا، ومن أعرض عما بُين له فلن ينفعه تذكير.

---

[1] كسر الإيقاع في الفاصلة القرآنية ودلالاتها, د. محمد الأمين الخضري، بحث منشور في المؤتمر الدولي الثالث، جامعة المنيا، كلية دار العلوم، ٢٠٠٧م، ص١١٣٨.

ثالثا: ظاهرة جناس الفاصلة

لم تخلُ السورتين من التجنيس والتكرار الصوتي في الفاصلة زيادة في قرع أذن السامع مع اختلاف المعنى بين اللفظين المكررين؛ ففي الانفطار كرر لفظ (الدين) وهو "يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدين كالملة، لكنه يقال اعتبارا بالطاعة والانقياد للشريعة"[١]، وفي السورة يحمل معناه الأول الدلالة على العقيدة والملة، ويحمل معناه الثاني دلالة اختصاصه بالقيامة لإضافته إلى كلمة يوم؛ فكأن هذا اليوم هو اليوم الذي يكون خاصا بمن أقام الدين أو خالفه، وجاء اللفظ مكررا أربع مرات كلها في فاصلة الآيات، فبدأ بالدين بمعنى الملة أو العقيدة فقال تعالى: (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) (٩)، فيما سبق لفظ الدين في الثلاثة الباقية بكلمة (يوم) إشارة إلى اختصاصهم بيوم الحساب، وتكرار يوم الدين أيضا إشارة إلى ثلاث منازل من الآخرة هي: (البعث والحساب والجزاء)، فقال: (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ) (١٥)، ثم قال: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) (١٧-١٨) ووقع الجناس في الفاصلة لأنها تقرع سمع المتلقي، واختلاف المعنى بين اللفظين في حد ذاته تكامل بين حياتين هما الأولى والآخرة.

وفي سورة الانشقاق كرر في الفاصلة كلمة (مسرورا) وهو إن كان تكرارا صوتيا إلا أنه لا يخلو من التجنيس في المعني؛ لاختلاف السرور وموضعه وأثره باق كان أم زائلا؛ قال تعالى: (وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) (٩) ثم قال بعدها: (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا) (١٣) فعمد النظم القرآني إلى تكرار كلمة (مسرورا) لبيان موضع السرور الحقيقي، فبينما الأول يعود إلى أهله الصالحين مسرورا بعمله الصالح، كان الآخر–من قبل– يعود إلى أهله ليتفاخر بالعصيان وعدم الرجوع وتكذيب المرسلين، وحسن تكرار

[١] المفردات للراغب (مادة: دين).

اللفظ مع اختلاف معناه للفت السامع المترقب العالم بقيمة التكرار؛ ليعقد مقارنته بين حالين ويختار أيهما شاء، ومما زاد من بلاغة التعبير وقوع الجناس في الفاصلة.

رابعا- ظاهرة تساوي الفواصل في صيغتي الاسمية والفعلية

جاءت فواصل السورتين متساوية متناصفة في الاسمية والفعلية، فبينما حظيت سورة الانفطار بثماني فواصل فعلية هي: (انْفَطَرَتْ- انْتَثَرَتْ- فُجِّرَتْ- بُعْثِرَتْ- وَأَخَّرَتْ- فَعَدَلَكَ- رَكَّبَكَ- تَفْعَلُونَ)، وثماني فواصل اسمية هي: (الْكَرِيمِ- الدِّينِ- حَافِظِينَ- كَاتِبِينَ- نَعِيمٍ- جَحِيمٍ- غَائِبِينَ- لِلَّهِ) وكرر لفظ (الدين) أربع مرات؛ لأن مدار الأمر عليه من حيث الاهتمام به كشريعة أو كيوم للجزاء؛ لتكتمل بهذا فواصل السورة التسع عشرة فاصلة التي تنوعت بين الاسمية والفعلية وتساوت في عددها، ثم حدث الشأن نفسه حيث تقاسمت فواصل الانشقاق صيغ الاسمية والفعلية؛ فجاءت الفواصل الفعلية في إحدى عشرة فاصلة هي: (انْشَقَّتْ- حُقَّتْ- مُدَّتْ- تَخَلَّتْ- يَحُورَ- وَسَقَ- اتَّسَقَ- يُؤْمِنُونَ- يَسْجُدُونَ- يُكَذِّبُونَ- يُوعُونَ)، وجاءت فواصل الاسمية في إحدى عشرة فاصلة؛ هي: (فَمُلَاقِيهِ- بِيَمِينِهِ- يَسِيرًا- مَسْرُورًا- ظَهْرِهِ- ثُبُورًا- سَعِيرًا- بَصِيرًا- بِالشَّفَقِ- طَبَقٍ- أَلِيمٍ) مع تكرار فاصلة (حقت) الفعلية مرتين، الأولى منهما خاصة بالسماء والثانية خاصة بالأرض وسبب تكرارها اختصاص كل ظاهرة منهما بطاعتها وإذعانها منفردة ومن ثم مجتمعين، وكررت فاصلة الاسمية (مسرورا) مرتين؛ الأولى لسرور المطيع في الآخرة، أما الثانية فهي لبيان سرور العاصي في الدنيا، وكرر السرور لاختلاف صاحبه ومضمونه وعاقبته، لتكتمل بذلك فواصل السورة الأربع والعشرين فاصلة.

وتتفق السورتان في البدء بالفعل الماضي الذي يفيد تأكيد وقوع هذه الأفعال وبخاصة في النصف الأول من السورتين الكريمتين؛ لأن هذا الجزء يحمل توترا وانقلاب وحركة وأحداث وتغيرات كونية كثيرة.

وبعد هذا خلصت الدراسة إلى تقارب في نسق السورتين من خلال مقاطعهما ووحدة أسلوبهما؛ نظرا لوحدة القضية في محاجة منكري البعث والكشف عن أهوال تعتري الكون مع الانقلاب الكوني.

فقد تشابهت مقاطع السورتين حتى كأنهما سورة واحدة أو سورتين تؤكد إحداهما الأخرى.

تكامل العلاقة بين اختيار اللفظ المعجمي، وترتيب النزول، والترتيب المصحفي حتي كشفت ثلاثتهم عن نسق ترتيبي منتظم يوضح تصاعد الأهوال.

تكرار تسع قضايا بين السورتين تشابهت في النظم وتخير التركيب؛ هي: البدء أسلوب الافتتاح الشرط، والنداء على الإنسان، وكرر لفظ (الرب) للعناية والرعاية والتعريض بإعراضهم بعد الإنعام، كما كرر الكتابة وحفظ الأعمال ومن ثم المجازاة بها لفريقي يوم الحساب، كما تكرر أسلوب الإضراب وتكرر معه لفظ التكذيب للتأكيد عليه، واتفقت السورتان في بيان حال الفريقين: المؤمن والكافر، بأوصاف الأبرار والفجار، وبأحوال استلام الكتب بأصحاب اليمين وأصحاب الشمال؛ لتجمل حالهم وتبين مواضع التضاد، وختم السورتين بالبرهان على القدرة والسيطرة مكررا لفظ الجلالة (الله) في السورتين، كما وجه الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم.

كما أثبتت الدراسة تلاحم العنوان مع مضمون كل سورة، فقد بدا صدى العنوان واضحا في كل آية من آيات كل سورة على حدة، فسريان الانفطار والانشقاق ظاهر

ماديا ومعنويا؛ لأن الأصل فيهما تصوير تصاعد الأهوال وانتقالها من حال إلى آخر أشد هولا.

كما بينت الدراسة حسن توظيف ظاهرة الالتفات كطريقة من طرق تحولات النظم التي تناسب هذا التحول الأخروي وما يعتريه من أحداث وأخطار.

وكشفت القيم التأثيرية للأساليب اللفظية والمعنوية عن تنوع هذه الأساليب في قوة الافتتاح، والدور التأثيري لاستعمال المستقبل بصيغة الماضى للدلالة على وقوع الأحداث وتحققها، كما تعرضت الدراسة للقيمة التأثيرية للتضاد بنوعيه الطباق والمقابلة مع بيان هذا الدور المرتكز على نجاعة هذا الأسلوب فلا يخلو نص يعرض أحوالا متباينة من دوره وقدراته التعبيرية، ولمراعاة النظير ظهور بارز في السورتين؛ لأنه يفيد الجمع بين الأمور المتشابهة وهي كثيرة على مستوى اللفظ والصيغة والتركيب، وللتوكيد بالتكرار الصوتي لفظا أو تركيبا بين السورتين مجاله الذي ظهر في التأكيد بذكر حروف أو كلمات أو تراكيب، وكشفت الدراسة عن أسرار الفاصلة من خلال بيان تقارب روى الفاصلة وقوافيها، كما عرضت لقضية التفرد في الفاصلة عن طريق دراسة الفاصلة المنفردة، وجناس الفاصلة، وتساوي الفواصل في السورتين بين الاسمية والفعلية مما يؤكد فكرة التقارب في النظم.

وهذه الدراسة ترد قول القائلين بضرورة ترتيب سور القرآن وفق نزوله؛ لأن ترتيب المصحف الحالي ضرب من إعجاز النظم وحسن الترتيب، وما أسباب النزول إلا لون آخر من الجمال والترتيب على وفق تاريخ نزول الآيات، وفي وجودها شاهد على علم الله الأزلي بما يقع في الكون وما تجري به الأحداث لكن لا تصلح بديلا للترتيب المعروف.

المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١٩٧٤ م.

أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

أسرار التكرار في القرآن, محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق: عبد القادر احمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ط٢، ١٣٩٦هـ.

أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق د. عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة، (د.ت).

الأصوات اللغوية، د.إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٧م.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١٩٩٥م.

الاقتراح في أصول النحو، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. محمود فجال، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٩م.

الإيضاح في شرح المفصل، لابن الحاجب، تحقيق: موسى بناي العليلي، وزارة الأوقاف، العراق، ط ١٩٨٣م.

الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، (د.ت).

البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ط١٤٢٠ هـ.

البديع، عبد الله بن المعتز، تحقيق: اغناطيوس كراتشقوفسكي، مطبعة المثنى، بغداد، ط ١٩٦٧م.

البرهان فى تناسب سور القرآن، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٠ م.

البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.

البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة, ط٢، ٢٠٠٠م.

تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، تحقيق: جماعة من المختصين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نشر أعوام ١٩٦٥ – ٢٠٠١ م.

التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط ١٩٨٤هـ.

التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيروت، ط٤، ١٩٨٠م.

تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.

التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، (د.ت).

التفسير الوسيط، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ.

تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٦م.

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للخطابي، والرماني، وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨م.

جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م.

جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط٢٠٠٠،١ م.

الجامع الكبير سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن الضحاك الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١٩٩٨م.

الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين بن علي المرادي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م.

الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٤٤٠هـ.

حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الأرمي العلوي، مراجعة: د.هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، ط١، ٢٠٠١ م.

خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ١٩٩٢م.

دلائل الإعجاز، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

ديوان الطرماح، الحكم بن حكيم جحدر الطائي، تحقيق: د. عزة حسن، دار الشرق العربي، سوريا، ط١٩٩٤م.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، (د.ت).

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

علم الأصوات، د.كمال بشر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: مؤسسة النشر الاسلامي، إيران، ط١، ٢٠٠٠م.

في رحاب القرآن تأملات بلاغية، د.حسن طبل، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٦م.

كتاب السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١٤٠٧هـ.

اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت، ١٩٧٢م.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.

المسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١ م.

المغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، أبو عبد الله فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٨٧م.

المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي دار القلم . دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.

المفصل في صنعة الإعراب، جار الله أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط ١٩٧٩م.

ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البدوي، نهضه مصر، القاهرة، ط ٢٠٠٥م.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر أبو بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت).

النكت والعيون، أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، ط١، سنة ٢٠٠١م.

مجلات ومؤتمرات ومواقع

العنوان في الأدب العربي (النشأة والتطور)، محمد عويس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م.

قراءة في كتاب سيمياء العنوان لبسام قطوس، الطيب بودربالة، مجلة سيمياء والنقد الأدبي، منشورات الجامعة، جامعة بسكرة، الجزائر.

كسر الإيقاع في الفاصلة القرآنية ودلالاتها, د. محمد الأمين الخضري، بحث منشور في المؤتمر الدولي الثالث، جامعة المنيا، كلية دار العلوم، ٢٠٠٧م.

مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، عادل بن محمد أبو العلاء، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية، العدد١٢٩، سنة ١٤٢٥ هـ.

من أسرار الفاصلة المنفردة في السور المكية سور النصف الأول من القرآن، د.حسن عب الرحمن سليم، المؤتمر العلمي الدولي الخامس، آفاف الإعجاز في القرآن الكريم جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالزقازيق، إبريل ٢٠١٧م، مجلد ٣.

النص الموازي في مجموعة (وثابة كالبراغيث) لجمال الدين الخضري، د. مسلك ميمون، موقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب http://www.wata.cc/forums/showthread.php، ٢/٣/٢٠١٢م.

The eloquence of the ordinal system in the Quranic eloquent speech, Al-Infitar and Al-Inshiqaq as an example

Abstract

The mechanisms of the beauty and greatness of the composing has grown in Quranic verses, and they have not limited to the miraculous internal composing between its words, phrases, and verses, going beyond the limits of internal proportionality to another proportionality connecting the surahs to each other in a very harmonious thread. As a result, they express a precision that parallels the accuracy of the precision of its internal composing. This is reflected in the essence of its ordinal system. Therefore, this research is performed to review the aspects of this balanced ordinal system which resembles a sequential system. This research has taken into account the interrelationships between 2 (Two) surahs are being related to the eschatological transformation, Al-Infitar and Al-Inshiqaq, in order to demonstrate through them the accuracy of selecting the expressions referring to the escalating horrors of the Resurrection, as well as revealing the relationship of the 2 (Two) surahs with 5 (Five) surahs that surround them and are connected with them to find the conditions of the Judgment Day direct or indirect manner. It is well-known that the 2 (Two) orders are either revelation or the Qur’an; demonstrate that the Cleaving Asunder (Al-Infitar) has preceded the Schism (Al-Inshiqaq). This relationship has led the research to consider the convergence of the title in terms of the dictionary, the Qur’an, and the revelation, to find-out the reasons for the escalation of horrors and their causes, while clarifying its impact on the internal composing and its context. The research has revealed the

convergence of the 2 (Two) surahs in the internal composing through the repetition of 9 (Nine) common issues between the 2 (Two) surahs, which the research has presented under the title of the repetition between the 2 (Two) surahs. The research has also focused on considering the effect of the title's flow within the content of the text, then it has concerned with the phenomenon of composing transformation through following the method of attention, the manifestations of which are consistent with the external transformations of events, as well as a number of the influential persuasive values of the moral and verbal methods in arguing Resurrection deniers. Finally, the study has been concluded by examining the separators that confirmed this convergence is being between the 2 (Two) surahs in composing, as the words of their separators are being equal in the nominal and verbal, and in the single comma. The narration voices have been similar in them.

Keywords: composing, arrangement, Quranic verses, Eloquence, Al-Infitar, Al-Inshiqaq